مريم يوسفي

أبي الجبل

جائزة
رئيس الجمهورية
للمبدعين الشباب
علي معاشي
2021

رواية

سرد
ضمّة للنشر والتوزيع
Dammah Publishing & Distribution

أبي الجبل

مرح يوسفي

أبي الجبل

رواية

الكاتبة: **مريم يوسفي**
عنوان الكتاب: **أبي الجبل**
خط الغلاف: **الفنّان عمر الجمني**
لوحة الغلاف: **زبير فارس**

الطبعة الأولى: 2021
ر.د.م.ك: **978-9931-801-17-7**
الإيداع القانوني: جويلية 2021

ضمّة للنشر والتوزيع، سيدي عيسى، المسيلة.
البريد الإلكتروني: dammah.nashr@gmail.com
Facebook-Twitter-Instagram: @dammahpub
w w w . d a m m a h p u b . c o m

جميع حقوق النسخ والتوزيع في العالم العربي©. منشورات ضمّة 2021
لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. تستثنى منه الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

إلى قاتلي وقتيلي.. إلى من لم أستطع أن أكتب عنه قبل أن أقتله.. إلى من رغبت أن أرسم له حياة غير تلك التي اختارها لنفسه، واختارني ضحية لها.. إلى من أردت أن أخلده فاخترت له ضريحا.. أعتذر إليّ بالنيابة عنه!..

«كم للموت من أبناء؟
إنهم جميعا في صدري..»
لوركا

«أما باء (بابا) فعالقة داخل تروقتي،

متشبثة بعصب الحنق..

لا أنا قادرة على ابتلاعها،

ولا هي بوسعها أن تلفظني!»

ذيل قصة

أنا الطابق الأرضي للعمارة..

العمارة ذات الواجهة الواحدة، كامرأة طمسوا ثديها الأيمن!

يملأني صراخ الشقق الخمس اللائي من فوقي، تنسكب داخل أذني حكايتهم الدائمة.. يترسب في جوفي لغوهم وسبابهم، وتخترق أذني نداءاتهم..

ساعة عتيقة بالطابق الخامس لا تنسى مواعيدها.. كل يوم سبت على الساعة الحادية عشر ليلا وأربعون دقيقة إذ تنطلق حنجرتها بسب أهل العمارة، حتى غائبيهم، وأطفالهم الرضع، وقططهم، بسبب أنها في الموعد الأسبوعي لتدفق الماء في الصنابير، يشح ضرع صنبورها بحكم تموقعها في الأعلى، وامتصاص الشقق الأدنى منها منسوب المياه..

وكل يوم سبت على الساعة الحادية عشر ليلا وثلاثة وأربعون دقيقة، يخرج مأمون إلى شرفته ويفرقع في الهواء مصطلحات سطايفية مجلجلة لجارته التي تعلوه، بيد أنها تكمل ما خرجت لأجله غير عابئة به وكأنه غير موجود،

يتوعدها بالشكوى بمركز الشرطة في اليوم الموالي، وبمعارفه فلان وفلان اللذين سيجرُّونها إلى التحقيق.. كما يتوعد زوجها الطرطور بأن ينزع له سرواله ما إن يبصق الصبح أنواره..

تجر الحاجة علجة حذاءها بحركة بطيئة يحجبها صراخ جيرانها العلويين، تضع يدها على حافة شرفتها بيد ترتعش، وعيناها معلقتان بخيط رجاء علوي: أن يخفضا صوت نباحهما مراعاة لشيخها المريض العجوز.. أو أن ينفّذ ابنها المغترب بكندا وعده ويرسل لهما المال الكافي ليشتريا منزلا منفردا، ويموتا فيه بسلام..

بينما لا يصدر عن شقة الموظف عمار وزوجته آمنة في الطابق الثاني سوى هسيس ماء الحنفية، والتي على خلاف بقية الشقق تضخ ماءَها بصوت مبحوح وكأنما تخشى أن تلفت الانتباه إلى وجودها، فضلا عن ذلك هي لا تخطئ مواعيدها، تتدفق بهدوء من الحادية عشر ليلا وأربعون دقيقة، إلى الثانية عشر وعشر دقائق، نصف ساعة مضبوطة تكفيهما ليملآ خزان المطبخ والحمام، ثم تهدأ راضية لتترك الزوجين يخلدان إلى النوم استعدادًا لدوام الغد.

في الحقيقة لا أفهم كيف ينام الزوجان مع الفوضى التي يحدثها الأطفال الثلاثة للخالة هناء تحتهما! إذ تستيقظ العفاريت التي تسكنهم في الموعد الليلي، ويستمر اللعب بالأواني النحاسية، والتراشق بالماء حتى يغيض ضرع

الصنبـور، ليمـر أسـبوع آخـر عـلى الأرملـة هنـاء المسـكينة التـي تعـاني مـن الـدوالي وهـي تسـتجدي السـقيا مـن الجـيران.. إذ إنهـا لم تفلـح في تخزيـن مـا يكفيهـا..

تصلنـي الحفلـة الليليـة التـي يقـوم بهـا أطفالهـا بكامـل تفاصيلهـا: رنيـم وهـي تحمـم دميتهـا وتغنـي، أحمـد وهـو يحـاول إخـراج دراجتـه مـن الـدولاب لتحميمهـا أيضـا، أمـين الصغـير المتوحـد الغـارق في صراخ حـاد.. ووجـه هنـاء السـابح في تعقيـدات لا حـل لهـا..

يمتلـئ رأسي بطنينهـم، أشـعر بقلبـي ثقيـلا يغـور في جـوفي، وكأننـي قمـت بخطـأ مـا.. وكأننـي مدينـة إلى كـوني لا أصعـد السـلالم، لا أصـارع جاذبيـة الأرض.. لا أتسـلق الهـواء لكـي أصـل إلى مسـتقري (أو هكـذا يبـدو)..

أهـرع إلى صنبـوري وأكتمـه: اششششـت أيهـا الفـم المتدفـق بالمعـاني، يـا ثغـر إبريـق الأمـاني النائـمات.. يـا بـوق وجـودي.. يـا صفـارة الحيـاة.. أيهـا الصـوت المندلـع في وسـط العاصفـة.. أصمـت!

أتنـازل عـن حصتـي مـن المـاء، فيشـفى صنبـور عتيقـة مـن بكمـه.. تلملـم سـبابها المتناثـرة شـظاياه في الشرفـة وتدخـل شـقتها (دون أن تهتـم بالسـؤال عـن سـبب شـفائه)..

ينسـحب مأمـون بعـد أن فقـدت شـتائمه مرمـى تسـتلقي فيـه..

تغمغم الحاجة علجة بكلمات الحمد رافعة رأسها إلى السماء (بينما أنا موجودة في الأسفل!)..

يستغرق الزوجان في سكونهما الحاد..

يستغرق أطفال هناء في فوضاهم الحادة..

وأرضى أنا.. قاعدة العمارة، متكأها، وموطئ مؤخرتها المكتنزة..

***

استدراك..

كطفل بريء من كل التهم يقرر أمه وأبوه وجدته لأمه وجدته لأبيه، خالاته وعماته، صديقا والده، وبنات خالات أمه، وربما بعض الجيران، وبعض المعارف غير الحميمين.. يقرر كل هؤلاء أنه ينبغي عليه أن يأتي إلى الحياة.. هكذا ببجاحة، ودون أسباب حقيقية يستجلبونه من العدم المريح، إلى فوضى الوجود.. يقذفونه كفكرة ملحة في رأسي عريسين مرحين فكرا بقضاء بعض من الوقت الجيد معا.. فيتورطا به، ويتورط هو بالحياة..

قلت، مثل هذا الطفل ولجت إلى رؤوس القراء من الشرفة، وبدأت بسرد الحكاية من المنتصف وبصوت مرتفع دون أن أراعي آداب بيوتٍ لا أعرف أصحابها.. نزعت الستائر، ودخلت بطقطقة كعبي المزعجة وجلست على أريكة البهو وبدأت أتحدث دون كلفة عن أشياء غريبة وغير مترابطة: عمارة من خمس شقق، امرأة تصرخ، رجل يسب، عجوز تبتهل، زوجين سعيدين، أطفال مزعجون وخروف يرتعد صوفه،

صورة مجمدة..

شعور بالذنب والخجل..

انسحاب بطيء..

وعودة إلى البداية ومحاولة لإصلاح الموقف..

طب طب طب

من بالباب؟

– أنا صابرين، صبرينة، الوردة، وزينة.. كل هذه الأسماء تعني الكائن إياه: الطفلة الدعجاء، السمراء، ذات الشعر المجعد الملس، الخوافة، بسبب هذا طوَّرَت خاصية الجري، تستهلك عشرة أصابع كي تصل إلى الدكان، وعشرة أخرى كي تعود إلى المنزل..

وتسعة حين يكون مأمون بالجوار.. عدا تلك المرة التي سقطت فيها أصابعها..

أنا صابرين بصوت أمي،

صبرينة بصوت معلمتي التي أضافت لي تاء الأنوثة لكي تميزني عن «صابرين راجعي» زميلتي بالصف والتي خطفتُ لها حبيبها لاحقا كما تدعي..

الوردة بصوت بابا (اعمر)

زّينة بصوته الذي يشدد على حرف الزاي..

...

نَمَوْتُ بشكل سريع لا أعيه تماما، سار بي مركب الأيام دون أن أتحكم فيه أغلب وقتي، إذ وجدتني في عجاج العمر

ويـد الريـح تدفـع بي إلى سـبل لم أخترهـا، نَمَـوْتُ وتحولـت الشـقيات الأربـع صابريـن وصبرينـة ووردة وزينـة إلى امـرأة معجونـة بالخـبرات، بجسـدها تكـورات كثـيرة، وبروحهـا كدمـات أكثـر.. كـبُرَ خـوفي، وتباطـأت مشـيتي، أمـا أصابعـي فصـارت قراطيـس، تمطـر معـانيَ..

تفصلنـي عـن الثلاثـين حـولا في الأرض خمسـين يومـا كنـت لأقضيهـا ناحبـة عـلى سـهامي الخائبـات التـي قضيـت ثلاثـة عقـود وأنـا أبريهـا لـولا أن حـدث مـا حـدث وجعلنـي أختـار شـكلا آخـر لنـدب مـا ضـاع منـي لحـد الآن.

اخـترت أن أشـحذ كل المعـاني التـي ترسـبت بي طيلـة ثلاثـة عقـود وأكتـب الحكايـة..

حكايـة مؤخـرة العـمارة التـي يحيـط بهـا سـور شـائك، وتجلـس فـوق رأسـها خمسـة طوابـق غاضبـة!

تساؤل بريء

«لماذا يصبح بعض الناس جراحي أعصاب، منظفي أسنان، مصرفيين استثماريين، بينما يختار آخرون مهنة لا تعد إلا بالفقر والرفض والشك الذاتي؟»[1]

(1) لماذا نكتب: ميريدث ماران.

«فلاش باك»

01

الطريق الذي يقود الداخل من باب العمارة الكبير إلى الطابق الأرضي مبلط، يحتوي بالضبط على ثلاثين بلاطة بالطول، وأربع بالعرض، شبه رواق يقسم الباحة المجاورة للعمارة إلى نصفين، كلاهما ترابي، وكلاهما عالم منفصل بتفاصيله المختلفة عن العالم الآخر..

يختلف شأني مع البلاطات في كل مرة.. حين أكون جائعة أقفز من السطر الأول إلى الثالث بخطوة واحدة، ومن الثالث إلى السادس.. حتى أصل إلى باب شقتنا بالطابق الأرضي.. وحين يكون «ب» بالجوار أتباطأُ، أقفز من البلاطة الأولى إلى الثانية بالصف نفسه.. أدور في حركة بهلوانية وأنا أراقب شرشف ثوبي يلتف..

أراقب نظراته المتأملة للسيرك الذي كنت أؤديه بجذل..

أغمض عينيَّ وأتخيله يقترب مني ويستلم يدي، أمدها مطاوعة، وفراشة ترفرف فوق رأسي..

نقفز بخفة معا من سحابة إلى سحابة على وقع طرق طبلة أغنية ما، ويدانا متشابكتان.. نمرُّ على حمامة مسرعة

فتلـوح لنـا بطـرف جناحهـا، وبينـما تتوقـف حمامـة صغـيرة تطـير بجانبهـا لتشـاهد العـرض.. تسـتعجلها الحمامـة الكبـيرة وتمضيـان..

نضحـك ونضحـك في جـذل، ولحـن الأغنيـة يعـزف إلى الأبـد.. وكل الكائنـات السـماوية اللطيفـة تشـجعنا عـلى الرقـص أكثـر.. لا نفكـر في واجبـات مـادة الرياضيـات التـي تنتظرنـا.. فقـط نتمنـى أن لا يجبرنـا أحـد عـلى التوقـف..

– راها لاباس يا مِرا..

– نـدي بنتـي للسـبيطار.. يصلنـي صـوت أمـي حـادا رقيقـا.

أفتـح عينـيّ بصعوبـة، تأتيني صـورة أمـي مشوشـة.. رشـة عطـر لاذع فأسـتعيد وعيـي: مـا الـذي حصـل؟

– فقـط سـقطتِ بينـما كنـت تلعبـين في الباحـة وأنـت مغمضـة العينـين، أطـرف عينـيّ مرتـين ثـم أرمـي ببـصري إلى النافـذة المفتوحـة، أرى حمامـة تنقـر الحـب.. وبجانبهـا حمامـة صغـيرة، تطـيران بعـد ثـوان دون أن تلوحـا لي..

لم أر (ب) في الجـوار بعـد ذلـك اليـوم، اختفـى عـن ناظـري لأسـبوع كامـل.. يبـدو أننـي خيبتـه حـين سـقطت مـن الأعـلى بينـما كنـا نرقـص سـويا.. ليتـه يفهـم أننـي لا أملـك سـيقانا قوية كالتـي لديـه، رأيتـه بعدهـا مـع سـندس ابنـة خالتـه يسـيران في الشـارع، يضحـكان بجـذل (لكـن لا يرقصـان).. ثـم اقتسـم معهـا قطعـة الشـكولاطة..

سقطت مرة أخرى.. ومن ارتفاع أكبر.. ودون أن يراني أحد..

ولم تكن السقطة الأخيرة..

تقول لي أمي إنني كثيرة السقوط، وتذكر لي شواهد كثيرة كدلالة على حكمها: حين كنتِ في الثانية، وطاردتِ عصفورا في باحة العمارة، وفي محاولة لإمساكه لم تسعفكِ قدماك الصغيرتان.. فتعثرت ساقطة على وجهك، ونزفت لثتك.. تواصل: بعدها بعام فقط غفلت عنكِ دقائقَ لأعد طعام الغداء فلحقتِ والدَكِ الذي خرج للصلاة وخانتك قدماكِ.. لم أنتبه لغيابك إلا حين وصلني صوت بكائك من النافذة..

تصمت لدقائق ثم تتفرس وجهي: ثبتي روحك ابنتي..

أحاول.. ولا أفلح..

أعجز لوقت طويل عن كبح نزقي وهذياني بالأشياء للمرة الأولى: أرى معطفا في واجهة محل ما، أجن به، أترجى أمي.. تدفع نصف ما بمحفظتها من مال، أقتنيه.. أعود إلى المنزل سعيدة جدا، أرتديه ليومين مزهوة، أقوم صباح اليوم الثالث وأنا لا أفهم ما الذي يفعله في خزانتي، أتسلل خارجا بدونه خفية عن أمي.. أعود مساء وقد أصبتُ بنزلة برد.. تناولني أمي ملعقة عسل كبيرة وعيناها تلفظان قلقا.. وحين تغادر غرفتي أسمعها تقول: «ثبتي روحك ابنتي»... دون أن تنطقها تماما..

أمضي الليلة أسعل.. أسعل.. ثم أخبو..
يعلق أبي مربتا على قلق أمي: خليها تعيش..

02

منذ صغري وأنا ألتقط الفروق الواضحة بين أبي وأمي، ومع الوقت صارت تلك الفروق أكثر جلاء.. حتى أن فكرة زواجهما راحت تبدو لي أشبه باللغز.. سألت أمي عن الأمر أول مرة وأنا في السادسة من عمري، فغطت فمها بأصابعها النحيلة ضاحكة ومالت إلى أبي بنظرة تطفح خجلا، ولم يبد لي من وجهها المغطى سوى بعض التجاعيد اللطيفة حول عينيها.. نقلت نظرتي المشدوهة إلى أبي فوجدت بطنه المستديرة تهتز من الضحك، وقد انكمشت بشرة وجهه الحنطية فشَكّلت خرائطَ وأخاديد..

أشار لي بيده أن تعالي، جلست بجانبه فأحاط جسدي الصغير بذراعه الضخمة وهمس لي بلكنة بوسعادية أصيلة: مازلك صقيّرة على ذو الحكايات..

لكن كلما زادت مشاهداتي لعالم كليهما كبرت علامة الاستفهام في رأسي عن العلاقة اللغز التي ربطت نقيضين مثل أبي وأمي..

إذ أرى أبي ببنيته الضخمة، وعينيه الكحيلتين اللتين ورثتهما عنه، والندوب الكثيرة على وجهه وذراعيه وكأنما

مـرت عـلى جسـده خطـوب كثـيرة.. يعانق جـذع شـجرة بلوط، يهـزه، تتسـاقط حباتـه.. يهولنـي المنظـر فأركـض نحـوه جذلـة.. يصيـح بي أن ابتعـدي لكـن الأوان يفـوت وتصيبنـي حبـة كبـيرة في مفـرق شـعري فأجلـس عـلى الأرض وأطلـق بـوق البـكاء..

أرافقـه أيضـا إلى السـوق، أتشـبث بطـرف معطفـه حـين يفلـت يـدي ليسـلم عـلى أحـد معارفـه، لا يتضايـق منـي رغـم أننـي ألتصـق بـه كزائـدة دوديـة.. لا أدعـه أبـدا يفلتني، إذ أشـعر بالهلـع مـن كميـة الأشـخاص الموجوديـن بالسـوق، الغبـار، السـلع، الأقسـام المغلظـة، السـباب.. والخصـام.. جعلنـي التصاقـي ذاك أراه عـن قـرب، طريقـة حجاجه، مسـاومته، صبره العجيـب عـلى نـزق الزبائـن، وتطفـل الأقـارب..

وأنحـشر في وسـط حلقـة الدومينـو في الجـزء الأيمـن للباحة المجـاورة للعـمارة، والتـي هـي في العـادة مخصصـة للرجـال، يجتمعـون فيهـا، يتسـامرون، ويلعبـون الديمينـو.. ويُحظَـرُ علينـا نحـن الأطفـال الاقـتراب منهـا لكـي لا نلتقـط كلامهـم وننقلـه في كل مـكان.. رغـم ذلـك يسـتغل أبي امتيـاز امتلاكـه لطاولـة الدومينـو ويسـحبني معـه إلى حلقـة اللعـب.. فبعـد كل صـلاة عـصر تجتمـع الشـلة: مـرزاق زوج عتيقـة الـذي يخـسر دائـما، البغيـض مأمـون، الحـاج مقـران زوج علجـة الـذي يبـدو وكأنـه سـيموت قريبـا.. ولا يمـوت! أراهـم مـن بعيـد يتجاذبـون أحاديـث مختلفـة حتـى يـروا شـبح أبي يقـترب منهـم حامـلا

طاولة الدومينو فتتهلل أساريرهم، عدا مأمون الذي يصيح بأبي من بعيد:

- ولاه جايب الهم معاك..؟

يتجهم وجه أبي، تتباطأ مشيته، ثم يتوقف فجأة ويهم بالعودة.. فيعلو صياح الرجال الثلاثة، وبينما يسحب مرزاق أبي من يده يطفق الحاج مقران في تقريع مأمون..

عوالم أبي كانت مملوءة بالإثارة والصخب، عوالم كثيفة كان أبي يبرع في مهادنتها بتركيزه العالي، ومرونته.. يداه: شاسعتا المساحة، عميقتا الأخاديد، دقيقتا الذاكرة.. دافئتا التربيتة.. ملعونتا الضربة.. والعارفتان بكل شيء..

تقابلها في الجزء الآخر عوالم أمي التي تشبه نوتة موسيقية..

النقيض الناعم لأبي.. والامتداد الحالم له..

كانت أمي تحاول سحبي إليها، لكنني كنت أعاند.. وعنادي كان يثير قلقها وارتباكها.. إذ إنني كنت أجد جني البلوط مع أبي أمتع بكثير من اجتماعاتها في صالون الحلاقة مع صديقاتها، يتبادلن أسماء مستحضرات لم أكن أفلح في نطقها، ويتبادلن أخبار فلانة وفلانة.. ويتباهين بهدايا أزواجهن.. كما أن سوق الرجال كان لدي أفضل من سوق النساء.. فالأول على فوضاه، وغباره، أفضل من جنون الثاني ولهاثِه.. ففي سوق الرجال يقصد الزبون سلعة محددة،

يساوم البائع، قد يشتمه أو يتخاصم معه.. ثم يقبل راجعًا في مدة لا تتجاوز النصف ساعة.. ولا يحدث كثيرا أن ترى زبونا قد جال السوق إياه مرتين.. لكن في سوق النساء يحدث أن تجرني أمي إلى المحل إياه ثلاث مرات لتتأكد من جودة السلعة، ثم تنصرف دون أن تشتريها، لكنها تشتري شيئا آخر تراه فجأة عند بائع يفترش الرصيف -ويا للغرابة - إذ تنتبه لضرورته لحظة رؤيته!..

يبتاع أبي مجلدات التاريخ من باعة الرصيف، وتزداد حفاوته بالنسخة كلما ازدادت قِدمًا، واصفرارا..

وتبتاع أمي مجلات نسائية تعج بالصور، وتبتهج حين يخطف عينيها لمعان الغلاف، وأناقة النسخة..

يستمع أبي لمواويل النوايل القدماء.. ويهز رأسه مستنشقا عبق النغمة..

بينما تغرق أمي في صوت كاظم السّاهر وهي تحتسي قهوة العصر..

تتكبد أمي مشقة إعداد طبق الزفيطي البوسعادي لأبي، مستعملة عضدها الهزيل في دق مكوناته في مهراس عتيق..

بينما يحجب أبي نفسه صباحات الجمعات عن الخروج لأجل أن ينظف أحشاء السمك التي تعافها أمي..

اتساق عجيب كان بين أبي وأمي، كنت شاهدة على تفاصيله لوقت قصير..

اتساق يشبه علاقة المايسترو بفرقته، يوجهها بحركات يديه.. وتغرقه بلحن أصيل..

وكنت بينهما أتلقف من هذا وتلك، في ري دائم، ووفرة ودلال..

***

اللحظة الصفر

كانت الليفة الوردية المشبعة بالغاسول المعطر تنزلق على جسدي بلطف، تذهب روحة وجيئة لتفرك عني التعب المتراكم.. وتذيب الغبار المتواري تحت جلدي..

أحب أن أَغمِسني كل نهاية أسبوع في طقس استحمام بطيء، أتطهر فيه من كل ما يتكدس بي.. حيث تنسحق أفكاري الثقيلة تحت رغوة الصابون، وتنمو براعم أفكار أخرى داخل فقاعاته..

كل نصوصي الجيدة عثرت على بداياتها هناك..

وكل النصوص العصية تكشفت لي أسرارها بينما كنت أدعك فروة رأسي بشامبو زلال البيض!

أخلِّل الماء بين أصابعي، أعيد الكرة مرارا حتى يمتقع جلدي باللون الوردي، لا أدري لم يخيل إليّ أن هناك أتربة كثيفة تترسب بهذه المنطقة بالذات.. !

أغمض عينيّ في الأخير، وأسلمني لرذاذ المرش..

وأثناء ذلك يغمرني سيل أفكار كثيرة.. وغير مترابطة..

أنشطة الأسبوع القادم..

لون الحقيبة التي تتناسب مع معطفي الشتوي..

كتاب قرأته منذ سنوات يتحدث عن مرض نفسي يدعى قهر الاكتناز..

ثم أجدني فجأة أتأمل عينيه اللتين برزتا فجأة في الظلام وأنا مغمضة.. وماء المرش الدافئ يغمر وجهي بينما تستقر الليفة تحت إبطي..

انزلق قلبي لوهلة..

سقطت الليفة من بين يدي وراحت تسبح في الماء الذي غمر الأرضية المبلطة.. بينما راحت أصابعي تتحسس النتوءات التي برزت هناك..

...

يا لها من حكاية مثيرة تلك التي بدأت هذه المرة تحت مرش الحمام!

***

[عقدي الثالث يوشك أن يعلن عن نفسه.. وخطتي الوحيدة لحدث جلل كهذا هو أن أغلق هاتفي كي لا يتصل بي أحد ويذكّرني بأنني أهرول نحو المجهول..

حسنا.. الحقيقة أنه لن يتصل بي أحد حتى لو تركته مفتوحا!

وهذه إحدى مشاكلي المزمنة منذ الثامنة، إنني لا أملك شخصا أهرع إليه لأخبره عن مخاوفي الحميمة: أن أبقى

عانسا.. أموت فقيرة، أو أن أقضم كل مسوداتي ولا أنجح أبدا في كتابة رواية جيدة!

فرقعت أصابعي ثم أضفت بتردد: كما أنني خائفة من..]

سقطت الجملة التالية بدخول أمي المفاجئ للغرفة، رفعت رأسي إليها هلعة وكأنما قد افتُضِحت.. اتسعت عيناها وهي تراني جالسة على سريري بروب الحمام، يتقاطر الماء من ذؤابات شعري الفارة من القلنسوة، وأنا منكبة على المفكرة و أكتب كالممسوسة..

ازدردت ريقي، وشعرت للحظة أنها قد أحاطت بما أفكر به..

طرفت عيناها مرتين، تفرستني قليلا ثم قالت: الغداء جاهز.. واختفت سريعا..

صالبت ذراعيّ، شعرت بوخزة تحت إبطي أو ربّما توهّمت ذلك.. لكنني كنت متأكدة (من غير أن أتجاسر على مواجهة خوفي في المرآة) أن النتوءات تلك لا تزال موجودة..

تمنيت في تلك اللحظة لو تتقلص المسافة بيني وبين وأمي إلى الصفر.. فأفتح باب غرفتي وأهرع إلى حضنها، وأخبرها عما تخافه الطفلة الغِرّة داخلي: أن أبقى عانسا.. أموت فقيرة، أو أن أقضم كل مسوداتي ولا أنجح أبدا في كتابة رواية جيدة!

أو أن تكـون النتـوءات تحـت إبطـي مقدمـة لسرطـان ثـدي يهـددني بـأن أمـضي بقيـة حيـاتي -عـلى أحسـن تقديـر- كأنثـى مشـوهة..

لولا أنني اخترت (لم أختر تماما) أن أكون أمّا لأمي..

أداريـني عنهـا، ألبـس ابتسـامات مزيفـة، أخنـق الخـوف داخـل جـوفي، وأخبـئ القلـق تحـت السريـر!

***

03

مـن أعـالي جبـل كـردادة تبـدو بوسـعادة كطفلـة مزهـوة مدللـة.. يلـف خاصرتهـا الجبـل العظيـم بـكل مـا أوتي سـاعداه مـن بـأس، تعانـق عينـاي ألـوان المدينـة التـي سـكبها دينيـه[2] في ألواحـه وأنـا عـلى يمـين أبي ملتحفـة ببرنوسـه، أستنشـق رائحـة الوبـر، ويوخـز شـفتيّ زغبـه.. متدثريـن عـلى أنغـام مذياعـه الصغـير..إلى جانـب أبي وأمـي كانـت بوسـعادة الطـرف الثالـث الـذي شـقّ مسـارات داخـل وعيـي..

يقـول أبي إنـه لا يمكـن لفنـان أن يعـرف بوسـعادة ويتمكـن مـن تجاوزهـا بسـهولة.. وبـدلا مـن أن يضيـف هـؤلاء لـتراث المدينـة فإنهـا هـي مـن تقدمهـم للعـالم.. كـما فعلـت مـع دينيـه.. إذ لم تكـن بوسـعادة بالنسـبة إليـه ورشـة مفتوحـة فحسـب، إنـما معـبرا لذاتـه وهويتـه..

لا أدري لم قـال لي أبي هـذا؟ أكان حدسـا منـه بأنني سأمسـك القلـم؟ أم رغبـة منـه بـأن تكـون هـذه المدينـة السـخية هـي المحـبرة التـي يرتشـف منهـا قلمـي المعنـى فتُشـكّلني مـن خلالـه؟

(2) نصر الدين دينيه: رسام فرنسي قطن ببوسعادة

يضبط موجات مذياعه على الإذاعة الوطنية، يتعالى موّالٌ باكٍ لأحمد خليفي، فنخشع له:

ماذا تدي يا تراب من الزينين،

يا درّاف وجوه لحباب خسارة

يا فراق اللي كانوا مجمولين

يا ذواق الحزن بكثر مرارة..

يتنهد أبي ويقول: الموت حق على كل نفس..

أشيح بصري عن قبة المسجد الكبير وأعيره انتباهي، لم يكن بين وجهينا المشتقين من بعضهما أكثر من مقدار شبرين.. في كل مرة كنت أقترب منه إلى هذا الحد كنت أشعر أن هذا الرجل هو جبلي الذي لن يرحل، وأنني سأبقى في كنفه إلى الأبد طفلة مزهوة مدللة..

يقول لي بلغته التي لا تشبه أية لغة:

كان السعيد رجلا شهما، وعاشقا مخلصا.. أحب ابنة عمه حيزية وتزوج بها، لكنها بعد فترة أصيبت بمرض مفاجئ وماتت.. حزن السعيد لموت حبيبته حزنا عميقا، وحين التقى بالشاعر ابن قيطون طلب منه أن يخلّدها في قصيدة..وفعل الشاعر العظيم ذلك.. وأجاد..وهزّ رأس وقلب كل من سمعها..وأبقى الجذوة مشتعلة في قلب السعيد..وهذا ما أراده السعيد المحروم أبدا من حبيبته، أن تظل حية داخله.. أن لا تنطفئ حرائقه، وأن لا يبهت اسمها

في قلبه.. ولم يكن يتأتى له ذلك دون ابن قيطون.. ودون اللغة..

سكت قليلا ثم أضاف:

يكون المرء عاجزا فيعطيه الله اللغة.. فيساكنها، وتساكنه.. وتهبه السكينة مرات.. والضجيج مرات أخرى..

محظوظ من يستطيع تطويع اللغة.. ومسكين من تمكنت منه فطوعته لما تريد..

يمسك أبي هنا عن الكلام، لا ينظر إلي، يراقب قطيعا من الأغنام بمحاذاة الوادي يعود أدراجه.. لكن عينيه الزائغتين كانتا تخفيان كلاما كثيرا..

عالجت كلامه في داخلي.. دون أن أفهم الكثير منه وأنا بذلك العمر الهش..

خمشت أظافري برنوسه، إذ تسلل إليّ الخوف الذي أطلّ من عينيه.. والذي لم أعتد رؤيته سابقا.. سحب يدي بلطف، ووضعها بين كفيه وقبّلها بحنان بالغ..

قال لي: خْويتي؟

أجبته بقلق خفي: لا!

قرصني على خاصرتي وسألني مجددا: أكيد؟

ضحكت وانقلبت على ظهري فجابهتني ملامحه الباسمة التي أحب: أشريلي زلابية!

اصطنع المفاجأة من إجابتي: زلابية قاع؟

ثـم مـدّ ذراعـي الهزيلـة ووضـع أسـنانه عـلى معصمـي وقـال: أعطينـي شـوي لحـم سّـع! وصدحـت ضحكاتنـا مـن أعـالي الجبـل الشـامخ.. وعزفـت عـلى كاف كـردادة لحـن حـب أصيـل..

***

سهم مسموم

سألتني الطبيبة بحذر: هل أتى معكِ أحد ما؟

هـززت رأسي بالنفـي، دون أن تبـارح عيناي وجههـا، ودون أن أتكلّــم أو أطرُف!

***

04

مثل أبي، فُتِنتُ بالمرتفعات، ولم أخفها!

أكثر ما يخلبني أن أطِلّ على بوسعادة من الأعلى، من سفح جبل كردادة، أو من شرفة عتيقة..

تطل عتيقة من شرفتها بالطابق الخامس، وتناديني حين تراني ألعب في الباحة: آي، يا طفلة!.. ويصدر صوتها بإلتواءات عجيبة، تنزعج أمي منه وتسميه نعيقا، تقول لي دائما إن على المرأة أن تتكلم بصوت هادئ حتى يحترمها الآخرون، أود سؤالها عن العلاقة بين الصوت والاحترام، لكنني أفضل الإفلات قبل أن تمنعني من تلبية النداء..

أصعد السلالم راكضة.. أقف عند الطابق الأول لألتقط أنفاسي، أحيانا أجد باب الخالة هناء مفتوحا وأولادها الثلاثة يفترشون العتبة مع ألعابهم، وبينما تدعوني سندس للعب معهم، يفر الصغير محمد حين يراني.. تطمئنني: متحوسيش عليه، ميحبش لعباد.. أتجاهلها مواصلة صعودي..

أصل إلى باب شقة عتيقة لاهثة، أجده مفتوحا دائما..

أدخل دون استئذان، أجدها أحيانا تفترش البهو بملابس خفيفة تنتف شعر ساقيها، أو حاجبيها، أو تضع قناعا على وجهها، أو لفائف على شعرها.. تبدو دائما جميلة بملابس ملونة، قصيرة، تحدد بدقة انحناءات جسدها الرشيق..

لم يحدث أن وجدتها يوما تجلس بتهذيب إلى طاولة لتأكل أو تقرأ أو تنشغل بغرض، إذ إنها تظل في حركة دائبة بينما تنبعث موسيقى راقصة من المسجلة، أو صوت مذيعة في التلفاز تتحدث عن فوائد زيت اللوز للشعر المتقصف! بينما تحمل بيدها شطيرة ما،

تختلف طريقة استقبالها لي في كل مرة على حسب مزاجها: أحيانا ترمقني بنصف نظرة وتقول بفضاضة:

– لاه طولتي! وأحيانا أخرى تتهلل أساريرها حين تراني وتُقبِّلني على وجنتيّ وهي تقول بالصوت إياه الذي أحب سماعه، وتكرهه أمي: كي راها زّينة، كي راها الوردة، كي راها الفحلة.. ثم تنتقل إلى درج قريب لتتناول قصاصة دون أن تهتم بسماع إجابتي:

روحي للكوسميتيك نتع مخطار هذاك اللي في الدورة..

أهز رأسي بالإيجاب..

قوليلهْ قاتلك توتة رسلّي لوريات خمسة، وأوكسيدو، وروج ماجيك، ولقاط.. وكي تدخل الخلصة نتع مزراق نرسلك دراهم..

أهز رأسي مرة أخرى وأنا لم أفهم كلمة واحدة مما قالته، تدرك ذلك فتدس القصاصة في يدي وقد دونت فيها كل متطلباتها..

أخفي عن أمي كل ما رأيته وسمعته، أحدس أنها ستمنعني من الذهاب إليها وتلبية طلباتها.. أستنتج بشكل ما أن المرأتين: أمي وعتيقة تسيران في خطين متوازيين لا يلتقيان أبدا.. فبينما ترى أمي أن شكل حياة عتيقة سيء وخاطئ، أجدني مشدودة إلى الإثارة التي تنبع من حياتها.. ولم أكن في سني ذاك بالوعي الذي يجعلني أميز، أو أصنّف عتيقة.. أو حتى أفكر بتقليدها كما كانت تخشى أمي.. لكنني فقط كنت مشدودة إلى الفوضى والصخب والتناقضات التي كانت تتسم بها حياتها..

ومن بين التساؤلات الكثيرة التي كانت تطرق رأسي حولها هو زوجها مرزاق الذي يشغل وظيفة مملة تشبهه: وضع الطرود في الميزان، وتحديد القيمة التي على الزبون دفعها..

أكثر من يقصدونه هم الشيوخ والعجائز إذ يقومون بإرسال رسائل لأبنائهم القاطنين بالخارج.. غير أن الحاج مقران يقسم بالأيمان المغلظة أن مرزاق يطفف، إذ إنه أرسل لابنه بكندا الشهر الفارط رسالة واحتسب مرزاق ثمنها بثلاثين دينارا.. بينما أرسل هذا الأسبوع مجموعة أعشاب برية وليست أكثر وزنا بكثير من الرسالة لكنه طلب منه

مائة دينار.. يعيد مقران هذه الأسطوانة في كل مجلس.. وما يكاد ينهيها حتى يكح مرارا، وتتلاحقُ أنفاسه.. ويحمر وجهه حتى يخال المحيطون به أنه سيموت، لكنه لا يموت!..

لا يكترث مرزاق لما يقول العجوز مقران ولا غيره، وكأنه بمعزل عن العالم كله.. وكأن زيارة المسنين المستمرة له قد كسته عمرا إضافيا إذ يمشي محدودب الظهر، مطأطئ الرأس، مكفهر السحنة.. نافرا إلى القطب الآخر عن شكل الحياة الذي يدب في زوجته.. إذ إن جلسات الدومينو هي النشاط شبه الوحيد الذي كان يتشاركه مع أهل العمارة..

عدا ذلك لا أحد يعرف نوع الحياة التي يتشاركها كوكبان غارقان في تفاصيل متناقضة مثل عتيقة ومرزاق، يتناهى إلى مسمعي حديث النسوة بشأنها في الحمام أو في صالون الحلاقة.. يحسدنها على جمالها ودلالها.. وينتقمن منها عن طريق السخرية من زوجها ويتبعنها باللمز: الوهرانية الطرقة علابيها بقات بلا أولاد..

غير أنها تبدو وكأنها غير مكترثة تماما لمسألة إنجاب الأطفال، وكأنها لا تحب الأطفال.. أو لعلّها لا تحب إلا نفسها!

05

– لِمَ شرفة عتيقة مغلقة منذ ما يقارب الأسبوع؟

ذرعت الباحة الخلفية للعمارة مرارا، لعبت وسندس «لاماريـن ولقشايش»[3].. نادتنا أمي لتناول اللمجة، التهمنا قطعتي بسبوسة، وكوبي عصير.. شاهدنا الحلقة المائة لكارتون (كونان).. وحين صعدت سندس إلى شقتها بعد الظهر، عدت إلى الباحة، واشرأببت بعنقي: كانت لا تزال مغلقة!

لم أعِ كيف قادتني قدماي إلى تسلق السلالم، وجَدْتُني فجأة ألتهم الأدراج وأنا أفكر في حجة مناسبة لذهابي إليها، كان ذهني مشتتا ولم أستطع إمساك أفكار مناسبة، رغم ذلك لم يكن بمقدوري فرملة رجليَّ.. رحت أفكر وأفكر حتى ألفيت نفسي أمام باب شقتها وأنا لم أقبض بعدُ على عذر ما..

الباب كان مغلقا على غير العادة، زاد ارتيابي.. تذكرت حلقة كونان التي شاهدتها منذ قليل، وسرح ذهني.. هل هي جريمة قتل؟ من سيقدم على شيء مماثل؟ زوجها؟

(3) لعبتان شعبيتان

إحدى نساء الحي؟ لص ما؟ ارتعدت فرائصي وأنا أتخيلني أدفع الباب لألمح جثة عتيقة وراءه بفم نصف مفتوح.. تراجعت إلى الوراء ذعرا من هذا الخاطر لكن الطفلة النزقة داخلي ضحكت ضحكة مجلجلة وجعلتني أضع يدي على الباب رغما عني وأدفعه..

سقطت الطفلة النزقة إياها على ركبتيها.. وتناثر حَوْلُهَا على الأرض..

أما أنا فتصلب جسدي كله، حتى أنني عجزت عن الفرار بعيدا.. الفرار أبدا خارج تلك اللحظة!

الشعر الأصفر إياه كما رأيته آخر مرة قبل أسبوع، وقد بدأ لون صبغته ينسحب من مقدمة رأسها.. الذقن الحاد.. الخَصر المنحني.. وأصابع القدم الدقيقة، وبالرغم من أنها كانت بعيدة عني بأكثر من خمسة أمتار، وممددة على الأرض، لكنني لحظة دفعي للباب والتفاتها إلى مصدر الصوت.. تعرفت عليها دون أن أحتاج إلى براهين أخرى: كانت عتيقة!

وقبل أن أستوعب ما رأيته، وأفر.. سابق هو أفكاري وحطّ أمامي كصقر غاضب.. لم أفهم كيف قطع تلك المسافة من البهو إلى عتبة الباب قبل أن أتمالك نفسي وأهرب.. أمسكني من ياقة قميصي وقام بحشري في الزاوية القريبة للباب.. لم يحدث أن اقتربت من مأمون مثل تلك المرة.. ورغم الذعر الذي تملّكني في تلك اللحظة إلا

أن تفاصيل وجهه انحفرت في ذاكرتي العميقة: الندبة يسار جبينه، سنه المكسور، التقرح بشفته السفلى، الرذاذ الكريه الذي راح يتطاير من فمه.. والنظرة الجائعة داخل عينيه..

صرخ في وجهي متفحشا: كون تقولي لكاش واحد وش شفتيا.. نحكمك (....) ووظف قاموسه السطايفي القذر في جمل عديدة جعلت نواقيس الذعر تضرب داخل رأسي..

أمومة أولى

أول ما أتلفظ به حين أفتح عينيّ صباحا: ميش حابة نروح نخدم!

رغم ذلك أجدني في وضعية استعداد قبل السابعة، وقد شحنتني (القهوة الخضرا) بالطاقة اللازمة لأبدأ صباحا آخر.. حيث يشرق يومي من رائحة الفنجان، ورشفته الأولى، ورشفاته التالية التي أشربها متقطعة بينما أثبت كريم الأساس على وجهي، وأضع الماسكارا، وأحمر الشفاه..

القهوة الخضرا، أو قهوة النوايل، أو قهوة أبي.. وحدها من تصالحني مع الصباحات البغيضة.. تربت على كتفي، وتشجعني على استقبال يوم آخر..

لا أدري من أول من ربط احتساء القهوة مع فعل اقتراف الكتابة؟ وكيف انبثقت هذه العلاقة اللامفهومة بين سياقين على هذا القدر من الاختلاف!

إذ إن الكتابة تتطلب مني الحد الأدنى من الانتباه، إغماض عيني عن العالم.. والغرق بعالم مواز..

بينما تفتح القهوة الصباحية عينيَّ على معالم الطريق

المهـترئ إلى محطـة النقـل، لتلفظنـي إحـدى الحافـلات إلى مدرسـة نائيـة ببلديـة الهامـل..

حافـلات النقـل ببوسـعادة تشـبه التوابيـت، وسـائقوها يشـبهون ملائكـة العـذاب المسـتعجلين لأخـذك إلى مصـيرك.. لا تثنيهـم الحُفـر والممهـلات عـن الإسراع بـك إلى الجحيـم..

أترجـل مـن الحافلـة، وأنـا أعـاني الغثيـان، طنينـا بـأذني، وآلامـا بكتفـي، وسـاقي.. أنسـاها جميعهـا عندمـا أمـر بمحـاذاة المقـبرة.. غـير أننـي لا أسـتطيع أن أتحكم برعشـة قدمي، وتشـنج ذراعـي الأيـسر.. رغـم أننـي ذرعـت الطريـق إيـاه لأكثـر مـن ثـلاث سـنوات إلا أننـي لازلـت أنكمـش أمـام المـوت، كحقيقـة لا يطالهـا الشـك.. ربـما لأننـي خبرتهـا مبكـرا.. غـير أننـي -مقارنـة بأيامـي الأولى- صرت أسـتطيع ابتـلاع الكـرة الحارقـة التـي تتصاعـد إلى حلقـي لأغمغـم بالتحيـة لسـكان العـالم السـفلي: «أنتـم السـابقون ونحـن اللاحقـون»..

أتذكـر أول يـوم اسـتلمت فيـه تعيينـي هنـا، حيـث رافقتنـي أمـي.. لعلمهـا بفوبيـا «المـرة الأولى» التـي أعانيهـا.. وحينـما لفظتنـا الحافلـة، وترجّلنـا نسـأل عـن موقـع المدرسـة.. وألفينـا نفسـينا عـلى حـين غـرة بمحـاذاة سـفح المقـبرة.. تملكنـا الذهـول لهـذا الاتفـاق الغريـب.. لم يكـن بوسـعنا أن نمـر عـلى تقاطـع كهـذا مـرور الكـرام.. أربكنـا نبـش جرحنـا المـوارب، ملامسـة المحرقـة التـي ظننـا أننـا تجاوزناهـا.. لنعـود ونصطـدم بهـا في اليـوم الأول لي لمحاولـة ابتعـاث حيـاة لم تكـن لطيفـة معـي منـذ وقـت طويـل..

تـأكل قدمـاي المسـافة عـلى غـير عجلـة إلى أن أرى سربـا زهـري اللـون يتحـرك نحـوي بثبـات.. وبينـما أحـاول إصـلاح ابتسـامتي، أجدهـن قـد تحلقـن بي: تلميـذاتي الصغـيرات، بمآزرهـن الموحـدة.. وهالاتهـن الملائكيـة، وطاقاتهـن العاليـة، وسـحناتهن المتباينـة!

– أنيسـة، ماما بعتتلـك طمينـة، راهـا في محفظتـي، في الاسـتراحة نمدهالـك، بصـح متمديـش منهـا لجهينـة خطراكش عايرتنـي البـارح قاتـلي حبـة زروديـة..

– أنيسة، شوفي شريت ألوان جدد..

– أنيسـة، شـوفي طاحـت سـنتي، ولات عنـدي نافـذة في فمـي..

– أنيسة، أربطيلي الخيط نتع صباطي..

أنيسة.. أنيسة.. أنيسة..

تأقلمـت مـع هـذا النـوع مـن الإزعـاج، أصبحـت أكثـر تفهـما وتسـامحا معـه.. بعدمـا كان صـوابي يطيـش لـه في البدايـة.. كنـت أتضايـق جـدا مـن الفكـرة التـي كان يـأتي بهـا هـؤلاء الأطفـال عنـي: أننـي أم بديلـة، كان عـلي –تحـت وطـأة هـذا الحكـم المسـبق– أن أصرف ثلثـي الوقـت المخصـص لتعليمهـم، وكل الوقـت المخصـص لراحتـي الشـخصية للاعتنـاء بانشـغالاتهم التـي لا تنتهـي.. لكننـي ومـع مـرور الوقـت صرت أنظـر إلى الأمـر بطريقـة أخـرى.. كنـوع مـن أنـواع الحظـوة

ربما، أو العزاء.. عن يتمي، ترعرعي دون إخوة.. وتأخر زواجي..

وظيفة التعليم التي زاولتها دون رغبة حقيقية مني في ذلك، غيرتني كثيرا.. أنا النزقة، الضجرة، الملولة، العجولة، المنسحبة.. صرت أبذلني لمدة ست ساعات يوميا في تمرين خمسة وثلاثين دماغا غضا على أمور بسيطة/ صعبة قضيت وقتا طويلا حتى أستطيع النزول إليها: الانتظام في الصف/ التقيد بمكان واحد لأكثر من ساعتين/ إمساك القلم/ الاستئذان قبل الكلام/ إعادة استرجاع معلومة/ الاستنتاج من الأمثلة..

امتلأ عامي الأول في هذه الوظيفة بالرعب والأسئلة حول خطر انغماسي في تجربة مماثلة من الناحية الإنسانية، قدرتي على التعامل مع المساحات البيضاء لأطفال في السابعة من أعمارهم؟ إدراكي غير المكتمل عن احتياجاتهم الخاصة والحميمة، وتلك غير المصرح بها؟ مدى تداخل انفعالاتي الخاصة مع ما أقدمه لهم والأهم، ما الذي سيترتب عن أخطائي في التجربة على نفسياتهم؟

رغم ذلك، احتوتني هذه الوظيفة أنا وغيري من جيل الثمانينات والتسعينات الذين اصطدمنا بقطار أحلامنا بعد التخرج.. حيث أن زملاء الدراسة الذين تباينت تخصصاتنا في الجامعة، عدت واجتمعت بمعظمهم في محطة النقل ببوسعادة.. موسومون جميعنا بمحفظة المعلم.. وكأنما أقفرت

المدينة من فرص عمل أخرى! غير أن أغلبهم -مثلي- كانوا مدفوعين بالثقوب الواسعة في قلوبهم وجيبوهم والتي راح يزداد قطرها بعد التخرج.. في مدينة على قدر دفئها لم تفلح في تعليمنا كيف نعيش أنفسنا..

رغم ذلك خضنا المحاولة على الأقل في إعادة تخليق طرق تواصل مع جيل يفصلنا عنه قرابة العقدين..

أسأل محمد: كي تشري خمس حبات حلوى، وتمد للميس زوج، شحال يبقى عندك؟

يقاطع ذراعيه على صدره، ويقطب: منمدلهاش!

أكتم غيظي: علاه امحمد؟

- خطراكش هي البارح كي كنت مروح من الحانوت وفتت على دارهم، حرشت عليا خوها اللي يقرا في المتوسط..

تصيح لميس: أنيسة، هو الاول طيحني البارح في الاستراحة..

- حق ربي ما طيحتها

..

يخرج من جوفي صوت تعرفت عليه مؤخرا: خرجوا القريصات والخشيبات..

يمتثلون بسرعة، ولا أسمع في تلك اللحظة، سوى خشخشة سحاب المحافظ!

ينطفــئ يومــي.. أذوي كشــمعة تُلَــوِّح بذؤابتهــا في جنــح الظــلام.. تنحــدر طاقتــي إلى العُــشر.. فأحمــل مــا تبقــى منــي وأعــود بي..

أعــبر البلاطــات دون عــد، تَكّتَــي مفتــاح عــلى البــاب وأجــدني في صــدر البيــت أخــيرا..

مســاء الخــير، يرتفــع صــوتي، لا يصلنــي الــرد فأفهــم أن أمــي ليســت هنــا.. ربــما ذهبــت إلى الجــارة، أو لتحــضر درســا في المســجد بعــد صــلاة المغــرب..

أعــد عشــاء خفيفا..أنتظرها..نتبــادل حــوارا سريعــا عــلى طاولــة الأكل..أحـضر درس الغد..أفتــح ملـف الروايـة، أكتـب ســطرين أو فقرتــين أو صفحتين..وقبــل أن أطفــئ الضــوء وأنــدس في فــراشي، أســحب ورقــة مــن التقويــم: مــر يــوم آخــر، لم يبــق ســوى ثلاثــة عــشر يومــا!

أضــع رأسي عــلى الوســادة وأنــا أطــوي تحــت جســدي المنهــك خبيئــة ذراعــي الأيمــن.. وأشــعر بالكثــير مــن الــلاشيء!

***

06

[أبي الجبل.. يا أكبر من اللغة والطبيعة، يا أوفى من شمس بوسعادة التي تقرص خدي كل صباح لأستيقظ.. يا عصيا على الرياح والغياب.. سيطل وجهك من الباب عند السادسة، أليس كذلك؟ سيأتيني شاربك الأيمن الكث.. أذنك الواسعة مثل هوائي مقعر ، ثم صورة الوجه الصبيح كاملة.. لأكتشف ككل مرة أنني ورثت عنك عينيك الكحيلتين الواسعتين.. طيبتهما ودهائهما أيضا..

فلتسرع الخطى يا أبي، يا عمري كما يحلو لك أن تسمعني أناديك.. (ولأنك عمري لا يمكن أن لا تأتي!).. فقد غصّ بهُونا بالضيوف لدرجة أن الخالة هناء قد فتحت شقتها لاستيعاب الوجوه الكثيرة التي توافدت إلى بيتنا منذ الصباح، والتي أجهل معظمها.. عليك أن تحضر أربعة فراريج بدل الاثنين لإطعام هؤلاء البغيضين الذين أتوا دون موعد.. ولو أنني أحب طعم ديكة (سيدي عامر) البرية، ولن يهون عليّ أن أتقاسمها مع كل هؤلاء.. لكن كما تقول أنت: الجود بالموجود..

إنها السادسة ونصف.. فقط تعال، سامحتك على أنك لم تأخذني معك لبيت أعمامي بسيدي عامر أمس، وأنك كذبت عليّ وقلت لي إنك ستأتي بينما نمت هناك.. وأنك تخلفت عن احتساء قهوة المساء معي اليوم أيضا.. سأسامحك عن كل مخالفاتك هذه وإن أردت - وربما يكون ذلك ما ساءك وجعلك تتأخر عني- لن أطلب مرافقتك إلى حلقات الدومينو مجددا.. فقط تعال!

أبي، هل تتذكر حين همست لك في أذنك قبل أن تنصرف على عجالة أن هناك سرا مهما يجب أن أخبرك به؟ ووعدتني أنك ستصغي إليّ حين تعود؟ إنه لا يزال مخبأً داخل حلقي ولم أخبر به أحدا لأن مأمون هددني إن أنا فعلت سيؤذيني، لكنك الوحيد الذي تعرف كيف تتصرف حيال ذلك!

تعال يا عمري، وأبعد عني تلك الأيادي التي تتمسح على رأسي كل ساعة، إنهم يطلبون مني الطلب الغريب: أن أدخل إلى المنزل وأكف عن انتظارك! إنهم يخبرونني أنك رحلت إلى مكان بعيد.. (كيف يتنحى الجبل عن ظهر المدينة التي يسندها؟)

إنها العاشرة ليلا.. هل ستبيت عند أعمامي اليوم أيضا؟ فليكن في علمك أن قد تجاوزت الحد المسموح به من الأخطاء! وأنك غدا صباحا حين تأتي إلى سريري لتداعب

شـعري لكـي أشـاركك فطـور الصبـاح لـن أسـتيقظ حتـى لـو توسـلت إليّ.. لـن أشرب الحليـب، ولـن أتنـاول الغـداء أيضـا وسـأبقى جائعـة حتـى أمـوت وتشـعر أنـت بالذنـب!]

..

يردد الصدى داخلي..

07

أستيقظ دون أن تأتيني يدك، أحاول تمييز وجهي الشاحب في مرآة المغسلة.. فلا أعرفه! أتفاجأ ببعض النسوة في المطبخ، بوجوه غير مبتسمة.. يحضّرن فطور الصباح بدلا عن أمي، ويتبادلن الأحاديث.. يسكتن فجأة إذ يروننني، ينادوننني بتحبب.. أجيل ببصري بينهن دون أن أجد الوجه الذي أبحث عنه.. أركض إلى غرفة والديّ، أتعثر بوجوه أخرى في البهو.. يصحن باسمي، أو يحاولن شدي من ثوبي (ماذا يريدون مني؟).. أدفع باب الغرفة دون استئذان، أتجاوز جدتي.. أقتحم السرير الممددة فوقه أمي منذ الأمس، وأهزها من كتفها، فتأتيني عيناها الغارقتان في مغارة حزن: أين أبي؟ وقبل أن تجيبني تمزق أذني صرخة قادمة من البهو.. فنلتفت ثلاثتنا نحو الباب..

تضرب جدتي كفها على صدرها: جابوه!

..

لوهلة امتلكت ساعد جبل، وصرت أشق الجموع التي حاولت الحيلولة دوني ودون الرجل الممدد على النعش،

والذيـن كانـوا يزعمـون أنـه أنـت.. قاومـت بمرفقـي وقبضتـي وصراخـي الأيـادي والوجـوه المزعجـة لأصـل إلى النعـش ولا أجـدك وأثبـت لهـم أنـك ضـد الريـح والطبيعـة والغيـاب.. لكننـي حـين وصلـت ورأيـت مـا لا يمكـن تكذيبـه: شـاربك الكـث.. حافـة الهوائـي المقعـر.. والجفـون المسـدلة عـلى نافـذتي الحيـاة سرت بـرودة في كفـيَّ اللتـين حركتـاك طويـلا دون جـدوى.. وانتفـخ حلقـي الـذي نـاداك طويـلا دون أن تجيـب.. وخـارت قدمـاي اللتـان فاتـك أن تعلمهـما كيـف تقفـان عـلى الهـواء..

***

عفاريت الذكريات

إحدى الأيادي البيضاء لوظيفتي أنها أعادت تفعيل عطلة نهاية الأسبوع، فقد كانت الأيام سابقًا كلها عبارة عن عطل متواصلة فارغة.. أحاول تشتيت استفاضتها بتصفح الانترنيت، مشاهدة الأفلام الإيرانية المترجمة، والبكاء ليلا.. وكلما شرعت في شَغل يديّ المهزومتين بشيء ذي جدوى صارعني الاكتئاب وصرعني.. ولم أكن أفلت من قبضته إلا بالمهدئات التي كنت أتناولها من حين لآخر خفية عن أمي..

ظللت على هذا الحال ثلاث سنوات كاملة بعد التخرج، فاقمه اصطدامي بالأبواب المغلقة.. وخروجي من علاقة حب استنزفت مني الكثير.. كنت أبدأ صباحاتي بتفحّص سحنتي على المرآة كطقس إجباري.. فلا أجد سوى شبحا يطل عليّ من نافذة عينيّ الواسعتين.. ولا يقطع عليّ تأملي الصباحي ذاك سوى يد أمي التي كانت تسحبني من صميم طقسي وتهزني بغضب وخوف.. تنظر إلى وجهي المشروخ تارة.. ثم إلى المرآة تارة أخرى دون أن تفلح في إيجاد تفسير يشفي حيرتها.. لتفاجئني يوما مرتدية كامل ثيابها في وقت مبكر..

- صبّح ربّح.. قلت بتهكم!

- تحركي، أفطري.. والبسي قشّك.. قالت بنبرة آمرة

- وين صباح ربي!

- كي نخرجو نقلك.. وانصرفت قبل أن تترك لي فرصة للاحتجاج..

كنت شبه نائمة وأنا أتبعها، وهي تتجاوز بي الأزقة حتى إذا اقتربنا من الوجهة المحددة طرق سمعي تلاوة قرآن.. فانتبهت، وفرملت خطاها المرتبكة والعجولة: متقوليليش..

قاطعتني، وقالت بلهجة متوسلة: ساعفيني هذي المرة يا بنتي.. راني حاسة بلي كاينة حاجة في المراية رابطاتك على الخدمة والزواج، وهذا الشيخ دلتني عليه نوارة نتع الجامع.. قاتلي يجو ليه حتى من تيارت.. وإذا منفعكش توبة لربي منزيدش نفتح معاك هذا السوجي..

لم أستطع النظر إليها وهي تقول هذا الكلام أكثر من نظرة شفقة.. مستدعية بمخيلتي صورة قديمة لها لا تمت لهذه التي أمامي بأدنى صلة.. صورة للالّة (جوهر) التي كانت تنظر إلى المجتمع البوسعادي باستعلاء امرأة مسيلية.. اضطرها الحب للنزول إليه.. لكن أيامها المريرة هنا، قوّضتها.. ولولا الرنة الخفيفة في صوتها لحسبها الناظر إليها أحد نخيل بوسعادة الضاربة جذورها في باطن التربة الحمراء..

تبعتها مستسلمة.. استقبلتنا الابنة الصغيرة للشيخ وهي مؤتزرة، وعلى محياها ابتسامة جميلة.. دلفنا إلى البهو.. حيث وجدنا ما يقارب الستّ نسوة ينتظرن أدوارهن.. حدست أن مدة الانتظار لن تكون قصيرة.. همست في أذن أمي: هل أستطيع أن أنام قليلا بينما يأتي دوري؟ فحدجتني بنظرة حادة..

كان عليّ أن أنتظر ساعتين قبل أن أحظى بالزيارة المباركة.. أثناء ذلك حفظت ألوان السجاد المفروش.. عدد الأحذية، وحكاية ابنة المرأة التي كانت تجلس قبالتنا، والتي تقدم لخطبتها ما يقارب المائة عريس، منهم الطيار، والطبيب، والضابط.. لكنها رفضتهم جميعا لتلحق بإسكافي حقير بحجة أنها تحبه.. تقلّب المرأة كفيها بتحسر: وهاني جايبتها للشيخ ان شاء الله تلقى دواها عندو.. تقول المرأة السمينة هذا بينما تغرق ابنتها المعنية على يسارها في عالم منفصل حيث تخفي هالات عينيها ليالي شجن طويلة..

– السلام عليكم سيدي الشيخ.. تقول أمي بوقار..

– وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته..

– جيناك يا سيدي طالبين الشفا على يديك.. تقول أمي بلهجة كسيرة..

– أطلبي الشفا من ربي سبحانو، يقول رافعا سبابته إلى السماء.. وخافضا عينيه إلى الأرض.. ما حنا إلا أسباب..

ثم يضيف: وش بيك اخيتي؟

- جيت على جال بنتي يا سيدي، ولا حاجة صلحتلها لا خدمة.. لا زواج.. وتضال قاعدة قدام لمرايا وتحكي معاها.. تقول أمي بلهجة كسيرة.

يقاطعها بإشارة من يديه.. ثم يحول ناظره إليّ ويحدق بي لدقائق: وش يوجع فيك ابنتي..

أمط شفتي: والو..

يبتسم، ويخفض ناظريه إلى الأرض مجددا: صحا.. غمضي عينيك، وارخفي روحك.. وافتحي قلبك..

أمتثل.. وأسلم أذني للصوت العميق الذي راح يرتل سورة البقرة.. لتربطني التلاوة دون وعي مني مع ذكرى بعيدة.. حيث كنت في الخامسة ربما وكان أبي يؤم رجال القرية بصلاة التراويح في أحد بطاح سيدي عامر.. قبل أن يساهم السكان في بناء مسجد.. لم أكن أتذكر تماما تفاصيل المشهد.. لكن الصوت العذب إياه كانت تستدعيه الذاكرة وكأنني سمعته بالأمس..

أجهشت بالبكاء وعيناي مغمضتان.. شعرت بأمي تضغط على كفي برفق.. صعدت كرة حارقة أخرى إلى حلقي فازداد نحيبي.. وفقدت القدرة على إيقاف نوبة البكاء التي اجتاحتني..

غُشِيَ عليّ دون أن أشعر.. رشت أمي وجهي بالقليل

مـن المـاء.. ففتحـت عينـيّ واسـتغرقت بضعـة دقائـق قبـل أن أسـتعيد شـعوري بالمـكان والزمـان..

- ماذا رأيتِ؟

- أبي..

أطـرق الشـيخ في صمـت عميـق دام برهـة.. ثـم طلـب مني الخـروج واسـتبقى أمي..

قفلنـا عائدتـين.. لم نتكلـم بـشيء.. عـدا أن أمـي سـألتني برفـق عـما أريـد تناولـه في الغـداء.. ولم تعـد لفتـح الموضـوع إيـاه معـي مـرة أخـرى كـما وعدتنـي..

..

مسـحت بكفـي عـلى وجهـي، فغـارت الذكـرى.. ورجعت لأتذكـر أنهـا نهايـة الأسـبوع.. وأننـي أنهيـت كل الأشـغال المنزليـة.. وحـضرت درس الأسـبوع القـادم.. وأطعمـت القطـة.. واسـتحممت وأن الورقـة البيضـاء أمامـي تصالـب ذراعيهـا في غضـب إن اسـتجلبت عـذرا آخـر، وتركتهـا لعريهـا اليـوم أيضـا.. لـولا أن جـرس البـاب رنّ، ولم يكـن بوسـعي إلا أن أهـرب مـن بيـاض الورقـة لألبيـه..

08

قرفصت أمام باب المنزل وعيناي مصوبتان إلى باب العمارة، عددت من الواحد إلى المائة في محاولة لمناورة الوقت.. وحين لم يظهر (مخلصي) عدت لأعد من المائة إلى الواحد بشكل عكسي (فكرة ذكية!).. ظهر (ب) مع سندس.. عبر البلاطات ليلاحظني عن كثب.. استطعتُ أن أميز ضحكته الساخرة، ثم همس إلى مرافقته بشيء وهو يشير إليّ.. تميّزتُ غيظا لكنني وجدتني أوهن من أن أقوم من مكاني لأرميه بحجر على رأسه إذ أنني لم آكل منذ البارحة، لكنني توعدته في سري بموعد لاحق حين يأتي أبي..

أغمضت عينيّ وشغّلتُ عجلة العدّ مرة أخرى.. وحين وصلتُ إلى الرقم سبعة وستون شعرتُ بيد باردة تمتد إلى ركبتي، فتحت عينيّ في هلع، فطالعتُ وجهًا مكدودًا بخدين مترهلتين وأنف محدودب، كان الشيخ (مقران) تفوح منه رائحة المسك اللاذعة مقرفص أمامي وينظر إليّ بفجاجة.. نفضت يده، ورجعت القهقرى.. لم يبال بردة فعلي تجاهه وقال لي بلهجة يشوبها الكثير من اللطف:

بابـاك نـاس مـلاح.. علابيهـا ربي داه للجنـة..

شـعرتُ بـشيء يتحـرك داخـل صـدري، غضـب يـدب في أحشـائي كسـحلية تتسـلق بأقدامهـا الخشـنة الجـدار.. امتـلأت عينـاي بدمـوع سـاخنة، فتماهـى الوجـه المكـدود حتـى تحـول إلى لوحـة طينيـة.. فقمـت مـن مـكاني ودفعـتُ الشـيخ الهـرم بـما تبقـى في سـاعديّ مـن حـول، وصرخـت في وجهـه: ولمـاذا لا تمـوت أنـت؟ لا أحـد يحتاجـك فلـماذا لم تذهـب إلى الجحيـم؟ أبي سـيعود.. أتفهـم؟

وركضـت بعيـدا حينـما رأيـت الحاجـة علجـة مقبلـة نحـوي بوجـه ثائـر: يخـي تربيـة ياخـي..

يجيبها صوت جدتي من النافذة: ترباو نتوما ياسر..

تركـتُ الشـجار خلـف ظهـري وهمـت عـلى وجهـي خـارج العـمارة.. جففـتْ الريـاح القادمـة مـن الـشرق دموعـي، تخففـت مـن غضبـي قليـلا لكـن الوجـع الرابـض عـلى قلبـي ظـلّ عـلى حالـه.. راقبـتُ بيـأس وجـوه العابريـن.. تعلقـت عينـاي بـكل ذي برنـوس وبـري.. خابتـا في مـرات عديـدة لكننـي أخـيرا وجدتـه! عنـد بـاب أحـد العطاريـن ينحنـي عـلى حزمـة (عسـلوج) يقلبهـا بـين يديـه! تـاركا البرنـوس ينحـسر عـلى كتفـه بإهمـال.. ومعتمـرا عمامـة صفـراء بحـواف قرمزيـة.. تعلقـت عينـاي بعاتقـه.. لم أشـك للحظـة أنـه هـو.. خاصـة حـين اقتربـت منـه وسـمعت ضحكتـه العميقـة.. ركضـت إليـه وضربـت ذراعـه بقبضـة يـدي باكيـة: لمـاذا تأخـرت يـا أبي!

التفتَ إليّ وفاجأتني عينان خضراوان تنعكس على مرآتهما الشمس فتقدحان منها شررا.. فكرت في الثواني القليلة التي سبقت نفضه ليدي ونهره لي أنه ربما العائدون من الجنة تستبدل ألوان أعينهم بألوانها.. لكن حين لفظني بتلك الحدة وأبعدني عنه فهمت أنه ليس (بعمري) الذي أعرف!

وسقطت للمرة الواحدة بعد المائة..

عثّرتني الخيبة وأردتني طريحة الرصيف الاسمنتي، وأبي المزيّف على بعد مني يتمتم بكلمات لم أسمعها.. والعطار يقرّعه على ما فعله.. وجرح ركبتي ينزف.. وصوت أمي يهمس في أذني: ثبتي روحك ابنتي!

وبينما أنا غارقة في جراحي العديدة جاءتني يد حنونة.. وعطر هادئ..

كان عمار..

حملني بين ذراعيه إلى محل قريب، غسل لي وجهي وجرح ركبتي، ووضع لي ضمادة.. واشترى لي كوب عصير لكنني رفضت أن أشربه..

هل أنت صائمة؟ سألني بتغافل

هززت رأسي دون أن أجيب..

مدّني بالكأس مرة أخرى: هل تريدين أن يعود أبوك ويجدك لست بخير فيرجع إلى السماء مرة أخرى؟

انتبهت فجأة: أنت تعلم أن أبي سيعود!

هزّ رأسه وهمس: لكن لا تخبري أحدا..

همست: لم؟

- لأنه في مهمة سرية

فغرت فاهي: ولم؟ ومتى سيعود؟

هـز رأسـه: لا تطرحـي الكثـير مـن الأسـئلة، لقـد وعدتـه أن أبقـي الأمـر سرّا.. لكـن إن لم تـأكلي طعامـك، ولم تعتنـي بدروسـك فلـن يعـود!

طرفـت عينـاي، وبـدا لي الأمـر منطقيـا إلى حـد مـا، لا بـد أنـه ينظـر إليّ مـن نافـذة مـن السـماء ورآني حـين تركـت طعامـي ومدرسـتي، لهـذا لم يعـد.. فمـددت يـدي إلى كأس العصـير..

الحصان الأعرج

تبادلنا النظرات لبرهة.. تفرستني المرأتان من أعلى رأسي إلى أسفل قدمي دون أن تقولا شيئا..

بعد دقائق، نطقت المرأة الأقصر بينهما والأكثر اكتنازا: أنت صابرين؟

أومأت لها أن نعم..

انفرجت ملامحها: ما شاء الله!.. وأمسكتني من ذراعي وشدت عليه، قطبتُ منزعجة.. فانفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة: لالّة جوهر هنا؟

أفسحت لهن فرجة للدخول: ستأتي بعد قليل.. ودلفت إلى المطبخ لأحضّر القهوة..

دقائق وجاءت أمي فضجت غرفة الجلوس بجلبة من القبلات والتراحيب الحارة..

التحقت بهن بعد هنيهة.. النظرات ذاتها لاحقت خطاي وأنا أضع أمامهن الصينية.. هممت بالتملص، لكن أمي أمسكتني من يدي: ريحي معنا شوي..

تأكدت ظنوني حينها إذ لم تبارحني نظراتهما وهما يغمغمان: الله يبارك.. الله يبارك..

مططت شفتيّ وأنا أطالعهما بنظرات حيادية، أما وجه أمي فكان منقسما إلى شقين: شق ينظر إليهما ويبتسم، وشق يطالعني بارتباك..

وضعت المرأة القصيرة يدها على ركبة أمي وطفقت بالكلام، نظرتُ إلى المرأة الأخرى التي لم تنبس بحرف مذ جاءت، بدت لي أقل حماسا من صاحبتها..

- راها شارتلنا عليكم مرت المدني اللي يبيع اللبن، وقالت بلي لالّة جوهر عندها سلعة زوينة وهانا جينا نعاينو فيها..

كتمت ضحكة داخل جوفي وأنا أردد: المظروف باين من عنوانو!

اعترت شفتا أمي نصف ابتسامة: عندي غير عوينة وحدة خداوج خيتي، ومذابيا نحطها في بلاصة مليحة..

حككت مفرق شعري بظفري، وقلت في سري: كثر خيرك ماما..

- شوفي لالة جوهر، أنا عندي طفيل قدو على قد حالو.. وراه يحوس على وحدة خدامة تعاونو..

قاطعتها دون وعي: بصح طاطا أنا نحوس نحبس الخدمة بعد الزواج..

التفتت إليّ النسوة الثلاث بعدما كنت خارج محور حديثهن، وهن يساومن فيّ ويفاصلن..

نطقت المدعوة خداوج بلهجة مستغربة: علاه أنت بهلولة؟ كاش وحدة تطلق من يديها الخدمة في هذا الوقت؟

قلت دون أن أستوعب كيف استطعت نسج كلام مماثل: أنا حابة نريح، ويخدم عليا راجلي..

رمقتني خداوج بنظرة حادة تختلف عن تلك التي تفحصتني بها عند الباب، محاولة بشكل ما استلاب حقي في الاختيار.. لم تقل شيئا لكنها قامت من مكانها وسارعت بالانصراف دون أن تثنيها محاولات أمي في استبقائها، وإتمام فنجان القهوة..

تباطأت مرافقتها في اللحاق بها، واقتربت مني بشكل مفاجئ حتى تغلغلت إلى أنفي رائحة فمها الكريهة، وتكلمت لأول مرة منذ وصولها: ريحي تلفي في الخطابين.. تلحقي للربعين كي حالتي، تلقاي روحك وحدك..

شعرت بشيء حاد نفذ داخل بطني، انكمشت على نفسي وغصتُ داخل الأريكة.. وابتلعت كل الكلمات التي من المفروض أن أجيبها بها..

صُفِقَ الباب.. سحبت أمي خطواتها ببطء في الرواق.. ثم جاءتني نظرتها المتعبة التي لم يكن بوسعي تلافيها.. تبادلنا من خلالها كلاما كثيرا دون أن نقول شيئا..

صورة مشروخة

تعتقد أمي أنني لازلت أفكر بحسام، أو أتواصل معه لهذا السبب أختلق الذرائع برأيها لرفض كل من يتقدم لي.. تقول لي هذا تلميحا وتصريحا.. تنظر إلي بشزر حين ألازم هاتفي مدة طويلة أو أجري اتصالا، أنفجر في وجهها بعض الأحيان، فيأتيني الانكسار داخل عينيها: راني خايفة عليك..

الخوف أناني، ويصعب على الأمهات خاصة الاعتراف بذلك..

أمي تحاول أن ترمم فجائعها العديدة من خلالي، تريدني أنا (أكثر شخص يخصها)، وفي عمري العصيّ على التطويع هذا أن أُسكب داخل القالب المريح لها لتطمئن أنها لم تفشل تماما.. لكنني بطبيعتي الشاذة عن نساء العالم -كما تراني هي- أجدف خارج طموحاتها، فتصيح في وجهي: خايفة عليك..

(أنتِ تخافين أن تفشلي مرة أخرى).. أهم بإخبارها هذا ثم أحجم، وأمضي في مجاراتها قدر احتمالي..

– حسام تزوج يا أمي، هل ترين أنني قد أقيم علاقة مع شخص متزوج؟

تأكل جلد شفتيها وهي تداري اتهامين: لست أصدق أنه قد تزوج، أنت تكذبين! ولست واثقة من أنكِ لن تنساقي خلفه حتى لو كان كذلك!

لا تنطق بشيء لكنني رأيتُ كُرة من الكلام تنزلق عبر بلعومها..

تقول: لكنك ترفضين الكثير.. ومع سنك هذا.. تبتر جملتها، وتزيغ بنظراتها بعيدا عني..

– أكملي يا أمي، قد يتوقف الخُطاب عن التقدم لي.. قد لا يأتي فارس خيالاتي الذي أرتجيه.. قد أكبر وحيدة..

تهز رأسها في رفض، تلتصق ذؤاباتها البيضاء بخدها، تنكمش أكثر التجعيدة تحت عينيها.. أشفق عليها حد الرغبة في البكاء، أداري كل ذلك.. تنزلق كرة عبر بلعومي قد تكون لَحِظَتها هي كذلك..

تمسك يديّ، وتضغط برفق: أخاف أن تكتشفي في وقت متأخر أن ما تنتظريه وهم، وأن تجدي ما ضيعتِه في طريق بحثك عن شخص غير موجود، وأنه كان بإمكانك أن تشعلي جذوة عمرك لو نزلت من برجِك العاجي، وأعطيت فرصة لشخص حقيقي، قد لا يكون بالمواصفات التي تريدين لكنه قادر على إعطائكِ سعادة من نوع آخر..

تضع يدها على أكبر مخاوفي، أسكت قليلا.. لكنني أكابر: لكن أبي لم يكن وهما..

يتهشم الزجاج داخل عينيها وتنفلت من محجريها دمعة: لقد رأيتِ (اعمر) كأب.. ولم تريه كزوج..

أرفع صوتي: أنت تتحججين دائما بهذا.. لكنني كنت شاهدة على معاملتِه معك.. وحتى أنتِ لم تنزلق شفتاك بنصف كلمة سيئة عنه.. لو لم يكن أبي زوجا جيدا كما تقولين، فلم تستمرين في تقريضه كل الوقت.. لم لا تزالين تبكينه وقد مر على وفاته أكثر من عشرين سنة!

- ذلك لأنني لا أريدكِ أن تريه سوى ذلك!

- وهل هو سوى ذلك؟

نشجت أمي مرتين، ثم مسحت عينها اليمنى بكم ذراعها وقالت: أبوكِ خانني صابرين!

***

09

أسأل جدتي من هذا؟ تقول لي خالك فلان، والآخر؟ خالك أيضا..

دخل أخوالي بيتنا وحياتنا فجأة، بعدما كانوا غائبين تماما في حياة أبي، ملأوا الثلاجة بالطعام، وغرفتي باللعب.. لكنهم كانوا حين ينفردون بأمي يعلو صراخهم وجدالهم لأسباب لم أفهمها..

زارتنا الشرطة عدة مرّات أيضا، استجوبوا أمي، ونكشوا غرفة والديّ، وسألوني على انفراد أيضا عن أبي لكنني كنت أنهار بالبكاء قبل أن أتمكن من الإجابة، في المحاولة الثالثة تدخّل خالي عصام: الطفلة لازلت تحت الصدمة، سأحضرها بنفسي إلى المركز حين تكون مستعدة للحديث..

وضع الضابط يده على كتف خالي وقال بفضاضة: تنحّ، وأتركني أقوم بعملي.

حينها لم يزد خالي على استجماع قبضته وتسديدها إلى وجه الضابط الذي انهار على الأرض..

في تلك اللحظة الصغيرة، على فزعها استعادت ذاكرتي

يـديْ أبي: شاسـعتيْ المسـاحة، عميقتـيْ الأخاديـد، دقيقتـيْ الذاكـرة.. دافئتـيْ التربيتـة.. ملعونتـيْ الضربـة.. والعارفتـين بـكل شيء..

وارتسـمت داخـل قلبـي صـورة حميمـة لرجـل يسـلم جلده للنـار قربانا لشـعوري بالأمان..

احتُجِـز خـالي عنـد الشرطـة أسـبوعا، وبعـد التحقيقـات وتدخّـل بعـض أصحـاب النفـوذ أُطلِـق سراحـه، ودخـل بيتنـا بطـلا.. احتضنتـه جـدتي، قبلـت أمـي كفّـه، أمـا أنـا فأسـكنتُه عينـيَّ، حتـى لم أعـد أرى الحيـاة إلا مـن خلالـه!

رافقنـي ليلتهـا إلى سريـري، وحـين اعتقـد أننـي نمـت، اجتمـع بأمـي وجـدتي في البهـو..

كانت عيناي مغمضتين، لكن سمعي كان مرهفا..

قـال: التحقيقـات تشـير إلى أن هنـاك جريمـة قتـل في الموضـوع..

لحظـات صمـت سـادت، ثـم عـلا نحيـب أمـي، أمـا أنـا فشـعرت بـشيء ثقيـل يجثـم عـلى صـدري..

ردت جدتي: ومن قد يقدم على شيء مماثل؟

لا أدري! أجاب خالي باقتضاب!

حرفيـا، لم يكـن لأبي أيـة عـداوات.. هـذا مـا أكـده الجميـع للشرطـة: سـكان العـمارة، إخوتـه وأهلـه بسـيدي عامـر والذيـن كانـوا آخـر مـن شـاهدوه، أخـوالي الـذي أكـدوا أن خلافاتهـم لم

تكـن تعـدوا كونهـم كانـوا رافضـين مصاهرتـه في البدايـة، لكـن الأمـر أصبـح مـن المـاضي، ولا يصـل أبـدا إلى هـذا الحـد مـن الكراهيـة..

واصلـت الشرطـة تحقيقاتها:أنـت طفلـة ذكية، علـق الضابط اللطيـف الـذي كُلّـف باسـتجوابي، وبعدمـا أخبرتـه في جلسـة واحـدة عـن كل تفاصيـل أبي التـي غفِلَـت عنهـا حتـى أمـي بعدمـا سـمعت حديـث خـالي ذاك، وبينـما كان يعتقـد الجميـع أنهـم قـد أخفـوا الأمـر عنـي..

كنـتُ أشـعر أن صـدري أصبـح فارغـا فجـأة، أضـم الدميـة «حيـاة» التـي أحضرهـا لي في عيـد ميـلادي الفـارط قبـل أن أنام، أفتّـش عـن يـده، لمسـته، رائحتـه، يبتـلّ شـعر اللعبـة بدموعـي.. ولا أسـتفيق إلا عـلى يـد خـالي عصـام تمسـح عـلى وجهـي..

أمـا أمـي فقـد انـزوت في ركنهـا القـصي تبكـي بطـل حكايتهـا، تحولـت في تلـك الفـترة مـن أم إلى حبيبـة مسّـها جـوى الفـراق فأضناهـا، كانـت تُمشّـط شـعري وهـي شـاردة، يقـع ربـاط شـعري مـن بـين يديهـا عـلى الأرض، تعجـز عـن التقاطـه فتبكـي.. تُعـرّي حزنهـا أمامـي في وقـت كنـت بحاجـة إلى أن تكـون متماسـكة لأجـلي، يـراودني كـره مـرّ تجاهها في تلك اللحظـات، لا أدري لم؟ أنظـر إلى كفيهـا أجدهـما مضعضعتـين، وأظافرهـا هشـة متآكلـة.. أنفلـت مـن بـين يديهـا، أسـلم شـعري النصـف ممشـوط للريـح وأذهـب إلى المدرسـة متوكّئـة عـلى نفـسي..

10

انسحبت ببطء من تلصصي على الباب المغلق، أين اجتمع خالي عصام بجدتي وأمي بعد انتهاء التحقيق وأخبرهم أن الجريمة تم تقييدها ضد مجهول..

ارتددت إلى خلوتي (رديفة الكتابة) فأمسكتني اللغة من عنقي المكتظ بالكلام وأقاءتني عجزي..

هكذا لطمت وجهي حرقة من خلال اللغة، حين عجزت عن الصراخ، الولولة، والتمرغ أرضا..

كسحر منفوث تحول الغضب داخلي إلى كلمات ذات أجنحة راقبتها بذهول وهي تنشق عن الورق، وتطير إلى النافذة.. أسقطت القلم من بين يدي ورفعت يدي المخموشة وودعتها.. غادرني سرب الكلمات في هدوء إليك.. فاتني أن أرسل إليك من خلاله قبلة، لكنك قطعا ستكون سعيدا وأنت تراني حريصة على إبقاء جذوتك مشتعلة في قلبي، وأنك ستظل أبدا حيا داخلي.. وأن حرائقك قطعا لن تنطفئ، واسمك الحبيب يا عمري من المستحيل أن يبهت..

نمـت ليلتهـا نومـة السـعيد حـين تلمّـس جرحـه مـن جديد داخـل قصيـدة ابـن قيطـون، مطمئنـا إلى فجيعتـه التـي خلدتهـا اللغـة، واحتفـت بهـا..

نمـت محتضنـة دفـتري.. داخـل عينـيّ بلـل، وفي رأسي أُشرع بابـا لعـالم سري!

كان ذلك اليوم أول عهدي بالكتابة!

***

الإرث

تقول إيزابيل الليندي لابنتها باولا: «إن الحب يصل إلى نساء أسرتنا في هبة عاصفة، فهذا ما جرى لأمي.. وما جرى لك.. وما جرى لي أيضا.. وأظن أنه ما سيحدث لحفيداتنا وحفيدات حفيداتنا حين يأتين..»

أورثتني أمي حظها في الحب، كما أورثتني قامتها المعتدلة، الشامة فوق شفتها العلوية.. وغددها الدمعية الغزيرة.. لكن بينما تصالحت أمي مع خيانة أبي، وحوطتها بذرائع كثيرة يستطيع الناظر إلى الانكسار في عينيها أن يدرك عدم اقتناعها بها، دفعت حسام من قمة قلبي إلى أسفله..

خان أبي أمي، وفرش صدره لامرأة سواها، لكنها آثرت أن تخدع نفسها على أن تتكبد مشقة النظر إلى الحقيقة فتُحرِق عينيها..

بينما تعاملت أنا مع هذه اللعبة القدرية بشكل مختلف، فبعدما اكتشفت خيانة حسام لي تركته.. ورحت أنزف لليال طويلة.. بينما تستحيل تلك الدموع إلى بصقة كنت أرميها في وجهه حين يقطع عليّ طريق ذهابي وإيابي معتذرا مترجّيا..

لم أنس حسام للحظة، ظل مغروسا في تربة قلبي طويلا.. رغم ذلك لم أشبه أمي، ولم أسامحه رغم توسلاته الكثيرة..لكنني كنت أشبه أبي في طباعه الجبلية القاسية: أزدري الأنصاف المشوهة..

كلما فكرت في الأمر.. وفي أمور أخرى ذات صلة بي، وبأبي وأمي اللذين كنت نتاجا حتميا لتفاصيلهما.. للرحلة التي خاضها كل واحد منهما على حِدة، ثم صدفة تقاطعهما لاحقا.. شيء من بيئة أبي البدوية، وبعض من بيئة أمي الحضرية، طرائقهما المختلفة في التعبير عن الحب والتعب.. وأدواتهما المتكاملة في الرسو على أرض واحدة..

كلما فكرت في كل ذلك رفعت رأسي إلى السماء وبدا لي أن فيثاغورس في العالم العلوي يصالب ذراعيه ويراقب أفكاري وهي تتجلى من خلال هندسة مثلثية.. أين أمثل أنا الوتر البيولوجي لوالدي، بينما يحاصرني كل منهما كضلعين مستقلين يرتفعان على علو مني، ويتقاطعان في نقطة ما بالفضاء، ونسبح ثلاثتنا في المساحة الناتجة.. نؤثر ونتأثر، نعطي ونأخذ.. تتفاعل أقدرانا وتصطدم، ويعيش كل منا حكايته الخاصة خلال كل ذلك..

رحت أتأمل وجهها الثائر، دموعها المراقة، ذؤاباتها البيضاء، أنفاسها الملتهجة، الخوف والغضب والانكسار داخل عينيها، عمرها وجمالها معا في لوحة وجهها، كنت أمها في تلك اللحظة.. كما في لحظات عديدة، أردت

احتضانها لولا المسافة، لولا دميتي حياة التي رافقتني في ليال اليتم بدلا منها،

سألتها بهدوء، بينما كان صدري يضطرم ألما، وذراعي الأيمن ينوء بثقله: من كانت؟

انتفضت ملامحها، وقامت كالمذعورة.. تعثرت بينما راحت تبتعد عني، وقبل أن تغادر غرفتي قالت دون أن تلتفت إليّ: لا داعي لتحضير العشاء اليوم، سأطلب من مطعم السعيد دوبارة..

***

11

قـرأ لي أبي مـرة قصـة قـال لي فيهـا إن الزمـن عنـد انشـتاين هـو عبـارة عـن خيـط طويـل موجـود في فضـاء آخـر، لـو نسـتطيع في المسـتقبل اخـتراع آلـة تأخذنـا إلى هـذا الفضـاء، والعثـور عـلى هـذا الخيـط فإننـا نسـتطيع أن نعيـش أوقـات سـابقة أو لاحقـة مـن حيواتنـا..

يبـدو أننـي رأيـت اللمعـة داخـل عينـي أبي حـين قـرأ لي تلـك القصـة مـا جعلنـي أفهـم أن الفكـرة شـغفته.. قفـزت في وجهـه وقلـت لـه أنني مـن سـيخترع تلـك الآلـة حـين أكـبر.. ولم أكـن جـادة كثـيرا حيـال ذلـك لكننـي كنـت أريـد إبهـاره..

تذكـرت القصـة حـين آيسـت مـن عودتـه وبـدت لي الأمـل الوحيـد لي في اسـتعادته.. لهـذا درسـت دون هـوادة، وحصـدت نتائـج ممتـازة في الموسـم ذاتـه الـذي فقـدت فيـه أبي حتـى أن المدرسـين ذهلـوا مـن النتائـج التـي حصدتهـا وأنـا برأيهـم لازلـت تحـت وطـأة صدمـة نفسـية..لكن خـلال ذلك اكتشـفت مفهومـا آخـر للزمـن سـوى ذلـك الـذي أخـبرني بـه أبي..

اكتشـفت تحدبـه بعدمـا كان فضـاء رحبـا دون حـد أتمـلّى فيـه كسـمكة منتشـية..

اكتشفت أن به ثقوبا فادحة تنفذ من خلالها الحمم إلى صدري في الأعياد والجمعات وحفلات تسلم الجوائز ، وفي مواسم الحاجة..تغير مفهوم الزمن وتجلياته، واستغراقه فيّ، وشكل تدفقه بين يدي.. وراح يدبّ فوق رأسي كليل أعمى حين كبرت واكتشفت كذبة عمار.. واتساع خيال انشتاين..

قال لي حسام: الزمن نسبي.

- كيف؟

أجاب:

-يمر كخطفة برق حين أنظر إلى عينيك.. لكنه يمشي مثل سلحفاة عجوز حين أكون في حصة العلوم أشرّح ضفدعة، وصابرين راجعي تهذر بأسئلة مقرفة عن جهازها التناسلي..

آه يا حسام.. كم كنت حذقا.. وكم كانت لغتك تشبه لغة والدي.. وكم كانت إجاباتك لذيذة.. وكم كان فاتنا الزمن الذي وُلِد على يديك..

أنا الابنة المدللة للجوع.. حشرت داخل جوفي معانيَ كثيرة، قئتها تباعا حين رحلت.. وجلست على قارعة زمنك خاوية من كل شيء..

سددت ثقوب الزمن، أقمت اعوجاج قامتي التي تهدلت بعد رحيل والدي.. ضمدت شرخ كفيّ الوحيدتيْن..

لكنـك كنـت تشـعر بالعجـز والضعـف أمـام شيء واحـد..

– راح نخـدم في الصّيـف، ونمدلـك دراهـم بـاش تتهنـاي مـن المزيـة نتـع الرخيـس نتـع خالـك..

أكابر:

–وش دخلـك؟ شـكيتلك؟ يقتلنـي، يقطعنـي يبقـى خـالي.. كنـت أردد كلام أمـي مـن غـير بالـغ اقتنـاع، ويبـدو أنـه رأى الـشرخ داخـل عينـي فصـاح:

–يزيد يمسك نهرسو!

أدفعه بكلتا يدي بعيدا عني:

–راني قتلك متدخلش روحك

يحتقن غضبا، وتتدفق الدماء ساخنة في وجهه:

– ولاه تنـوضي فيـا البـارح مـن النـوم وأنـت تشـكي وتبكـي..؟

– منزيـدش نديرهـا، اسـمحلي.. أزفـر في وجهـه وأنـا أغالـب دموعـي..

يُمسِـكني مـن معصمـي بقـوة ويُقربنـي إليـه، أسـمع صوت أنفاسـه الحـارة اللاهثـة، يقـول بصـوت أقـرب للهمس:

–زيـدي أصـبري هـذا العـام زّينـة.. نفـوت البـاك ونجـي نخطبـك..

تجـف دموعـي، يمتصهـا جلـدي.. ومعهـا كل خـوف العـالم وبؤسه..

الأذرع المفتوحة

في كل مرة ينفرج باب عتيقة عن ملامح وجهها المليحة أفكر في أن أسألها عن سر شبابها الدائم، لكنني أنسى سؤالي في خضم الحديث المزدحم الذي أحمله إليها..

طالعتني بنظرة حيادية ثم تركت الباب مُشرعا لأدخل، وسبقتني إلى المطبخ..

وضعتُ كيس الفراولة على الطاولة بحذر: ألازلت غاضبة؟

قالت وهي متشاغلة بغسل الأواني: أعلم أنه لا يوجد شخص تذهبين إليه سواي..

نهضتُ من مكاني وقلت لها: جئت لأعتذر لكِ عما بدر مني المرة الماضية، كنت فضة في ردة فعلي تجاهك، لكنكِ كنتِ أيضا قاسية حين رميت بوجهي ما زعِمت أنّه الحقيقة.. حقيقة عفافي الساذج، وأنني لن أحظ بعلاقة حب حقيقة إن لم أمارس الجنس..

لا تنسي أنني على أعتاب الثلاثين من عمري، وأنني

أبدا لن ألبس في هذه المرحلة من حياتي مهما بلغ بي البؤس ثوبا لا يشبهني..

لا أريد أن أكون قاسية مرة أخرى لكن ما تدّعين أنك تملكينه من خبرة في الحياة والحب والرجال لم يخولكِ للحصول على حياة زوجية سعيدة.. رغم ذلك ترمين نصائحك في وجهي بفجاجة!

..

قلت هذا وأنا أشعر أنني أنفث أنفاسا حارة مع كل كلمة أتلفظ بها، كنت أريد أن تكون النهاية لعلاقتي مع هذه الساحرة كما أحب أن أناديها، أردت إيلامها لكي تفتح الباب وتطردني للأبد، فأتحرر من حقلها المغناطيسي، وأكف عن الهرع إليها كلما أردت أن أستفرغ الكلام الذي أداريه عن أمي..

طالَعتني بنظرة شاحبة، ثم وضعت كفيها على كتفيّ ودفعتني لأجلس على الكرسي ووضعت أمامي فنجان قهوة وقالت بصوت خافت: كم تشبهينه وأنتِ تتحدثين!

- من؟

حركت رأسها وغمغمت: لا أحد!

ثم سريعا.. التأم الانكسار الذي وشّى عينيها للحظات، وكان ذلك ما يميز عتيقة عن أمّي: ثباتها الانفعالي!

قالت: داخل عينيك كلام آخر..

ازدردت ريقي وصمتت للحظات: هنالك كتلة تحت إبطي الأيمن!

لمع الفزع داخل عينيها: خبيثة؟

- لا أدري بعد

- ذهبتِ إلى الطبيب؟

- فعلت، ولن تظهر نتيجة تحاليل الخزعة المأخوذة من الكتلة قبل عشرة أيام..

أمسكت يدي وضغطت عليها برفق: خائفة؟

- لا أدري تماما، أشعر بالأيام طويلة وثقيلة، أنا في عطلة كما تعرفين، والانتظار يزيدني توترا.. وعقلي يفتح عليّ نار احتمالات مفزعة!

أمسكتني من ذقني بطرف إبهامها ورفعت لي رأسي المطأطئ إلى الأعلى: أُكتبي الحكاية إذًا ريثما تنتظرين..

- أية حكاية؟

- حكاية مؤخرة العمارة التي يحيط بها سور شائك، وتجلس فوق رأسها خمسة طوابق غاضبة!

***

12

توقظني أمي من النوم بلهجة حذرة وتهمس لي: جاء خالك.. ثم تختفي مسرعة قبل أن تسمع جوابي، أتمهل في سريري دقائق أفكر في اللاشيء، أشعر بأقدام القطة على كتفي.. تخمش أظافرها في غطائي.. أحسدها لوهلة.. وأرغب في امتلاك مخالب مثلها لأغرزها في وجه المنافق الذي يجلس خارجا..

أوافيه إلى غرفة الجلوس.. أتعثر بأكياس كثيرة في البهو، أحدس أنه من أتى بها، أكاد أبصق فوقها لكنني لا أفعل.. يأتيني رأس أمي منكسا، وصوتها خاضعا.. بينما يجلس هو مستريحا، رافعا هامته.. أكره في تلك اللحظة أمي أكثر منه.. أمي التي سمحت له بالعبور إليّ وإيذائي..

يتفرّس وجهي لدقائق بينما كنت ساهمة عنه في اتجاه آخر.. يحمحم ثم يقول كلاما كثيرا عن الأخلاق والدين والحشمة ولباس المرأة المسلمة الذي لا ألتزم بمواصفاته.. والذئاب البشرية التي في الخارج.. ومثال غريب عن الحلوى المغطاة التي يشتهيها الرجال الحقيقيون، والحلوى المكشوفة التي يحوطها الذباب..

تحدث لنصف ساعة ثم سكت فجأة وقال لي: هل تسمعينني؟

نظرت إلى وجهه، كان وسيما.. لكنني شعرت بالزغللة داخل عيني وأنا أتفرّسه.. وكأن الذي أراه أمامي وجه شيطان رجيم.. أردت أن أقول شيئا لكنني تراجعت بعدما رأيت الصُّفرة تتسلل إلى سحنة أمي: لقد أذّن مؤذن الظهر، هل أحضر لك السجادة؟ قلت بتحدّ..

حدجني بنظرة حادة ذات معنى، تجاوز سؤالي ثم قام ودسّ حزمة من المال بين يدي أمي، وأشار إليّ بطرف سبابته: اشتر لها ملابس لائقة!

كان خالي عصام يحاول أن يشتري رضا الله من خلالي.. إذ يقطع كل أسبوع ثمانين كيلومترا من المسيلة عاصمة الولاية إلى بوسعادة لأجل الغرض ذاته: أن يطمئن بأنه ليس بديوث.. خالي كان لا يمانع أن يترك الصلاة، أو ينام مع النساء، أو يستغل قرضا ربويا في مشروع تجاري لكنه يهدم الدنيا فوق رأسي أنا وأمي حين أذهب إلى المدرسة مرتدية البنطال.. ويشتهيني ذباب الشارع.. فيُقصم ظهر رجولته..

تقول أمي إن الرجل (الفحل) هو الرجل الذي يغار على محارمه.. وبما أن أبي توفي، فمهمة إثبات الفحولة انتقلت إلى خالي.. أسألها: وأين فحولته المزعومة وهو يراك تذرعين الإدارات العمومية وحدك، وتتوسلين الأنذال لأجل تسوية معاملات الإرث؟

تـداري ارتباكهـا وهـي تتحجـج بمسـؤولياته العديـدة.. أهـزأ وأضيـف: وهـل تبخـرت مسـؤولياته وهـو يفاجئني عنـد بـاب الثانويـة ليتأكـد أنني لم أعـص أوامـره!

تخفـي أمـي ذعرهـا الدفـين مـن بطـش أخـوالي الـذي طالهـا قبـل زواجهـا.. وهـا هـو يعـود إليهـا بشـكل آخـر بعـد وفـاة والـدي.. إذ كانـت تهـوي في ذعـر سـحيق لمجـرد أن يطـرق أحد أخـوالي بـاب بيتنـا.. بيـد أنني لم أكـن أفهـم سـبب ردة فعلهـا المبالغـة هـذه.. إذ لم يكـن بإمكانهـم اسـتغفالي، رغـم أنـه تـم تعنيفـي، وضربي وإهانتـي مـرارا مـن طرفهـم..

كنـت أتمـرد.. أصرخ.. أشـتم.. صعـدت مـرة إلى شـقة عـمار وآمنـة واحتميـت بهـما ليلـة كاملـة.. وأدخَلـتُ مـرة أخـرى أحد أبنـاء عمومتـي في شـجار مـع أصغـر أخـوالي ، ولم أهـدأ حتـى رأيـت الـدم ينـزف مـن شـفته السـفلى..

كنـت غاضبـة.. هائجـة، ملتاعـة للاسـتباحة التـي طالتنـا أنـا وأمـي مـن طـرف أخـوالي بعـد وفـاة أبي..

لكـن في كل مـرة كانـت أمـي تلجـأ إليهـم مضطـرة ليشـتروا لهـا الـدواء بعدمـا زارتهـا أعـراض السـكري أو يدفعـون لنـا فواتـير المـاء والكهربـاء.. أو يبتاعـون لنـا أضحيـة العيـد.. كنـت أشـعر أنـه تـم شراء سـكوتي بالتقسـيط.. وأننـي قربـان لسـاديتهم اللامفهومـة..

كنـت أمـضي الليـالي الطويلـة وأنـا أنتحـب وحسـام يسـلّم أذنـه لجرحـي المفتـوح دون ملـل.. وأغفـو بعـد إنهـاك لأرى

أبي في الحلم حزينا كسيرا.. شاردا بنظرته عني.. وتغوص رجلاه في ضباب كثيف.. يبتعد كلما دنوت منه، مسلّما لناظري عاتقه الذي كنت أتسلقه وأنا طفلة.. ثم ما يلبث أن يغور بعيدا مثل الطمأنينة التي غادرتني مذ رحل..

قضى أبي سنينه القصيرة وإيّاي يحاول تحييد جنسي ما استطاع. كان واعيا أنني سأكبر ويتم استهدافي لمجرد أنني امرأة.. وبينما كانت أمي تنازعه سلوكه هذا وترى فيه خطرا على أنوثتي، كان يقاومها ويحاول أن يجعلني أعيش الحياة كإنسان كامل.. والحقيقة أن البذرة التي زرعها فيّ لم تذهب سدى.. وانطلقت كسهم بعد وفاته رغم كثرة المتكالبين عليّ وعلى أمي.. لكنني ما لبثت أن وجَدتُني أتمنى ما لم أكن أتمناه في حياته: أن أكون ذكرا! إذ إن هشاشة أمي سرت إليّ شيئا فشيئا.. ورحت مع مرور الأيام أتلمّس ضعفي وعجزي ومحدوديتي..

لم يترك لنا أي مصدر دخل قار، كان فلاحا بسيطا، وجوّادا مسرفا لا يدّخر دينارا واحدا لغد.. ومنازعات الإرث مع أعمامي لم نخرج منها سوى بالشقة التي نسكنها، وأمي كانت أضعف وأوهى من أن تخوض حرب الرغيف بمفردها.... ما جعلها ترضى بإنفاق أخوالي عليها رغم أذاهم على أن تخرج من السور الشائك الذي أحاطت به نفسها..

كل نشيج تخفيه عني، أسمعه.. يحكي عمرا من النكسات قضته لتسند انكسارنا بوفاة والدي.. كل الهم

المتهدل تحت أجفانها أشعر به شاهدا على الليالي البيضاء التي باتت فيها تتقاسم آهة صدري، محاولات التعويض المتأخرة عن شبابها الذي تآكل أمام عينيها دون أن تستطيع الإمساك بشبحه، أفهمها!.. صبغة الشعر، جلسات النميمة، انفجارها أمام الأسباب الصغيرة، ودعاء آخر الليل..

أشعر أحيانا أنني دون قلب، حين أتركها تطفق في الكلام ثم أضع السماعة في أذني وأشيح عنها بوجهي، يرتبك بؤبؤا عينيها قليلا ثم تحمل خيبتها وتنصرف عني، فأنسى أمرها حتى يداهم عطرها غرفتي حين أغفو، تغلق نافذة غرفتي بإحكام، تقترب مني.. تتحسس جبهتي، وتتفرس وجهي قليلا ثم تذهب.. هنا أشعر أنا بقذارتي حتى يداهمني الغثيان، وأسحّ عفن نفسي في دموع ما بعد منتصف الليل..

كانت لي الحضن الذي أحتاج.. لكنها لم تكن ذلك الذي أريد.

***

الخطيئة

أشعر بالذنب كوني أكتب، وكلما حاولت القبض على الملابسات الأولى لخطأ كهذا انفلتت ذاكرتي، وغرقت يداي في الذنب أكثر، لهذا أمضغ كل فكرة نص جديد تروادني وأنا أفرك الأواني، أمضغها ببطء حتى يتغير طعمها وألفظها بقسوة.. وحين يسألني أحد عن موعد صدور كتابي الأول، أهز رأسي بأسى: لا أفكار جيدة!

بعض الأفكار تعلق بين أسناني بعناد، وكلما حاولت لفظها تشبثت أكثر.. أغسل أسناني قبل الأكل وبعده، وقبل أن آوي إلى النوم أغسلها أيضا.. لكنها لا تذهب.. تزعجني أكثر، تقرص شفتيَّ، تأكل خدي، أهشها من أمامي فتبصق داخل عينيّ كي لا أنام..

أقوم من فراشي، أقصد المطبخ، أشرب كوب ماء، أعرج إلى غرفة والدتي، أجدها نائمة بعمق، فيتضاعف داخلي شعور كم أنا مسكينة! أعود إلى غرفتي، أسحب هاتفي من تحت وسادتي ببطء، أقيد الشيطانة داخل المفكرة، تسلم لي يديْها بغنج وكأننا سنرقص الفالس،

أطـرق أظافرهـا بمسـامير ثقيلـة فتتـأوه جذلـة.. وحـين أصـل إلى المسـمار الأخـير وتبتـدئ ضربـات قلبـي في الانتظـام، وأعتقـد أننـي أنهيـت، تقهقـه ضاحكـة وتخـرج مـن رغـوة ضحكتهـا شـيطانة أخـرى تقـرص شـفتيّ، تـأكل خـدي، وتبصـق داخـل عينـيَّ كـي لا أنـام!

13

أخمش بأظافري الجدار.. تتحول إلى كلاليب خاطفة.. أثبتها على الجسد الإسمنتي وأدفعني إلى الأعلى فتستحيل قدماي إلى مناقير حديدية.. أتسلق الحلم، أرفع رأسي إلى هامته فتبدو بعيدة، أواصل التسلق.. أشعر أن بأوصالي طاقة كافية لأصل.. أشق الظلام إلى غايتي وأنا ألهث.. ينزف معصماي لكنني لا أبالي.. أتفل الخوف على يساري ثلاثا.. أسلي نفسي بدندنة أغنية لفيروز: بس في أمل.. بس في أمل.. أقطع أشواطا كثيرة لكن الطريق يبقى طويلا.. أنا لا أخاف الطريق لكنني أخافني وأنا أراني أتململ من الظلام والدم.. أحاول استدعاء صور جميلة وأنا أسعى إلى الأعلى لكن ذراعا طويلة تمتد إليّ وتذرو كمشة من الرمال في عينيّ..

استيقظت فزعة. الكوابيس إياها تقض مضجعي كل ليلة! تمتد يد مخيفة إلى سكوني وترعبه.. كانت تلك بدايات تعرفي على الخوف! الليالي التي تلت حصولي على شهادة البكالوريا، والتي قضتها صديقاتي في لهو ومرح، وقضيتها محمومة مهمومة بمفاجأة نجاحي التي أعدها لي خالي!

أُشرِع بـاب الشـقة عـلى لحظـات فرحـي المسروقـة، وجـاء وجهـه الغاضـب، فأقعـى قلبـي عـلى الأرض قبـل أن أعـرف سر مجيئـه! انتهـز حصولـه عـلى مفاتيـح إضافيـة مـن طـرف أمـي - إكرامـا لـدوره الـذي لعبـه في حياتنـا بعـد وفـاة أبي- واسـتباحنا مـن خـلال هـذه المكانـة/ الحظـوة!

تقاطعـت نظراتنـا للحظـات، فاجـأني في منتصـف ضحكـة ظلـت معلقـة في الهـواء كدعـاء ينقصـه اليقـين..كل مـرة أنظـر إليـه تـأسرني مناطـق الظـل والنـور المتناسـقة في وجهـه، وكتفيـه، وصـدره، وثيابـه، ورائحته..صُنـعَ الله الـذي أتقـن كل شيء.. حتـى هيئـات شـياطينه!

اعترضـت أمـي طريقـه وأخبرتـه أن هنـاك ضيوفـا بالداخل، بـتر جملتهـا وسـحبها مـن ذراعهـا إلى المطبـخ، بينـما توليـت أنـا لملمـة الموقـف أمـام صديقـاتي.. غـادر بعـد نصـف سـاعة مـن الحديـث، سـمعت طقطقـة البـاب العنيفـة، ليأتيني بعدهـا وجـه أمـي مغموسـا في فزعـه مؤكـدا ظنـوني حـول مـا دار بينهـما!

لا أذكـر أنـه مـر عـليّ دهـر عمـره سـاعة مثـل ذلـك اليـوم، ولا أذكـر أننـي خـبرت سـتين عاصفـة داخـل جـوفي مثـل تلـك المـرة، كنـت واجمـة أوزع ابتسـامات مشروخـة أمـام رفيقـاتي اللائـي رحـن يهززننـي بالضحـك والنـكات، رغبـتُ في انصرافهـن سريعـا، بعدمـا كنـت أسـتبقيهن منـذ سـاعة.. ويبـدو أنهـن شـعرن بالهـواء الثقيـل الـذي رحنـا ننفثـه ونزفـره أنـا وأمـي فغـادرن بعـد وقـت قصـير، ودعتهـن عنـد البـاب

بعبارات اجتثتها من داخلي اجتثاثا، بينما أغرقوني بالقبل والمباركات.. صفقت الباب وراءهن، ولحقت أمي التي سبقتني إلى المطبخ لتغسل أواني الحفلة، وجدتها جالسة على الأرض تنظر إلى كوب زجاج وقع منها، وقد جرحت شظية منه إبهامها فراحت تبكي، تجاوزت شعور الشفقة تجاهها، كما لم أهرع إليها لأطببها.. فقد كانت تلك - كما جرت العادة - إشارة منها على شعورها بالعجز!

- ما الذي كان يريده خالي؟

- أحد أصدقائه يريد الزواج..

- هاه؟

- بك!

ازدردت ريقي: هل تعرفين كم أبلغ من العمر؟

راحت تنظر إلى شظايا الزجاج المكسور، وكأنما تفتش عن إجابة ما: هو فقط يريد أن يؤمن لكِ حياة مستقرّة..

صحت في وجهها لأول مرة: قلت هل تعرفين كم أبلغ من العمر؟

ضربت بقبضتها بقايا الكأس على الأرض، فراحت كفها تنزف، انكمش قلبي داخل صدري، انتابتني كل المشاعر تجاهها عدا شعور الشفقة، دنوت منها، وهززت ذراعها النازف: عمري سبعة عشر عاما أيها المجرمان!

نفد الهواء الذي كانت تسحبه بين شهقاتها، واستعصى عليها التنفس، فازرقّ جلدها.. وانحسر منديلها على رأسها وهوت جمجمتها على الأرض، ودوّى صداها داخل رأسي كصرخة رضيع.

شخّصتُ بصري بها، ومرّت بذهني صورة خاطفة لأبي وهو ممدد على التابوت، ونافذتا عينيه مسدلتان عن الحياة!

لم أعرف كيف استجمعت قوتي وخرجت أمام باب الشقة أولول، تداركني الجيران.. حملوني وإياها إلى المستشفى، مددوها على السرير.. وضعوا لها قناعا مزودا بالأوكسجين، وناولوها ابرة لينخفض ضغطها الذي ارتفع فجأة..

هاتفت خالي، فجاء بعد ساعة..

مددت إليه يد ضعفي وحاجتي، تلقفني وأنا أشهق، وجسدي يرتجف كعصفور وحيد، أضاع الطريق إلى عشه في ليلة ماطرة.. فمسح على رأسي مطمئنا، كانت يده التي راحت تُمَسّد شعري إياها التي لكم بها الضابطَ على وجهه، استعرتُ منها أمانا مؤقتا، وأردت أن أصدّق لوهلة أنها لم ولن تبطش بي..

انتفخ وجه أمي من ضغط الدم الذي عاود الارتفاع، ناولوها إبرة ثانية، وأنا أفكر في أي طريقة انتحار أقل ألما أعاقبني بها إن حدث لها مكروه بسببي!

ثابت إليها عافيتها شيئا فشيئا، واستفاقت عند منتصف الليل وطلبت منا أن نغادر المستشفى، اصطحبناها وهي تضع رأسها في حجري، وأنا أراقب طوال الطريق تنفسها لأتأكد أنها حية ترزق، أضجعتها على سريرها، وأعددت لها منقوع النعناع..

رفض خالي المبيت عندنا، وأصر على العودة إلى المنزل، رافقته إلى الباب مودعة، فدس في يدي مبلغا من المال لأشتري به الدواء لأمي، وقال لي قبل أن يغادر: القراية ما عندك ما تقضي بيها، وأمّك ميش راح تدوملك، فكري مليح!

ازدردت ريقي الذي وددت لو كان بوسعي أن أبصقه على وجهه، وهززت رأسي كديك مذبوح!

***

لحظة خاصّة

«حكايـة مؤخـرة العـمارة التـي يحيـط بهـا سـور شـائك، وتجلـس فـوق رأسـها خمـس طوابـق غاضبـة»

أكثـر اللحظـات إثـارة لـدى الكاتـب حـين يقبـض عـلى اسـتعارة طازجـة، ويركـب الخيـال جموحـه مراهنـا عـلى مـد أذرعهـا، الـذراع تلـو الـذراع حتـى تتحـول إلى نـص بوسـعه أن يدافـع عـن نفسـه، ويحاجـج خصومـه، ويقـول كلمتـه!

لا أكاد أذكـر أنهـا مـرت عـليّ لحظـة أكثـر أهميـة مـن تلـك التـي ألقـت فيهـا عتيقـة عـليّ قولهـا الثقيـل،

أعـادت تعريفـي، صححـت تموضعـي، ووضعـت يـدي المخموشـة، الضعيفـة، المرتعـدة عـلى المقـود أول مـرة!

تيقنـت في تلـك اللحظـة أن عتيقـة أكثـر مـن سـاحرة، وأنني في موضعـي السـفلي مـن العـمارة أكثـر افتقـادا للثبـات منها..

«حكاية مؤخرة العمارة..»

كيف بوسع حكاية مثل هذه أن تبدأ؟

هـل تتصاعـد عـبر الطوابـق، أم ترمـي نفسـها مـن شرفـة عتيقـة؟

هـل تتجـاوز السـور؟ أم تطـل مـن الشـقوق المتوزعـة عـلى جسـده؟

هـل تأخـذ حمامـا دافئـا، وتوقـظ حماسـها تحـت المـرش؟ أم تحـرق العـشرة أيـام المتبقيـة لهـا، قبـل أن تفقـد جدواهـا في النزيـف بالتفاصيـل؟

واسـتغرقتني الفكـرة، وقلـت لنفـسي: بـما أني كـبرت بـما فيـه الكفايـة وأنـا أنتظـر هـذه اللحظـة فسـأتعامل مـع هـذه الاسـتعارة بحفـاوة تليـق بهـا، كـي لا تتحـول إلى مـشروع خيبـة كـما سـبق وحـدث في لحظـات انبثـاق واهمـة (أو أنهـا كانـت حقيقـة وحولتهـا إلى وهـم بقلـة اكتراثـي)..

سـأجعلها مهمـة وحقيقـة كلحظـة انبثـاق الكـون مـن الكـرة الصغـيرة ، الكـرة التـي كانـت تحمـل طاقـة كـبرى مكتومـة.. وحـين تحـررت أذرعهـا الكثـيرة تشـكلت الحيـاة، وتبلـور المعنـى الـذي كان حبيسـا داخـل تلـك الكـرة..

سـأجعلها كلحظـة الوقـوع في الحـب أول مـرة، مربكـة، وباعثـة عـلى اللـذة والشـك في آن واحـد.. إنـاء تنضـخ منـه الحيـاة والفنـاء.. نقطـة تلتقـي فيهـا الأسـئلة، بينـما تبقـى إجاباتها عاريـة ومبتـورة..

وحزمـت في الأمـر وقلـت أننـي سـأخصص لأجـل ذلـك سـاعة كل يـوم، سـتين نفسـا لا تنقـص منـه شـهقة.. فارتجفـت شـفاهي أمـام ذعـر الحصـة المأكولـة مـن يومـي، وفجـأة صـارت السـاعة تلـك أهـم مـن الثـلاث وعشريـن الباقيـات، ضروريـة

وملحة لمهام سوى الكتابة: الأكل، النوم، جلي الصحون، تحضير درس الغد، وإطعام القطة، وصارت الساعات المتبقيات من يومي تشبهن امرأة سمينة تجلس في كرسي حافلة مزدوج، وتنظر ببغض إلى جليستها الهزيلة التي لم تحصل من الكرسي إياه سوى على عشرة سنتميترات!

وحتى أفك الشجر الحاصل بين الساعة المسكينة، والساعات السمينات، توقفت وسَأَلْتُنِي: ما الجدوى من الكتابة؟

14

هاتفت حسام وأخبرته بلهجة هادئة: تقدم لي عريس

ضحك ملء شدقيه وقال: مبروك!

لم أضحك: أنا أفكر في العرض بشكل جدي

سكت للحظات، عالج فيها ما قلته: ماذا تقولين؟

أجتبه: خالي يريد هذا

كان اسم خالي كفيلا بجعله يفهم كنه الأمر ومساره، إذ إنه كالني وإياه في تلك اللحظة نصف السباب البذيء الذي كان يحرص على إبعاده عن مسمعي حين نتحدث، لم أوقفه غاضبة كما هي عادتي حين ينزلق لسانه بكلمة لا تعجبني، بل كنت أشعر أنه بتفحّشه يكيل للعالم وشره كل البذاءة التي تحجبني عنها أنوثتي، وتربيتي، وبراءتي!

بكى حسام.. لكنه لم يكن بوسعه أن يفعل شيئا..

ما الذي يستطيع أن يفعله شاب في الثامنة عشر من عمره؟

في الليلة الموالية اتصل بي وهو مخمور، فصلت اتصاله ورميت بالهاتف عرض الحائط فتفتت قلبي إلى أجزاء صغيرة..

تقلص حجمي وعدت فتاة في الثامنة، حين كنت أزيغ عن الكل، ولا يتلقف حيرتي إلا هو.. فذهبتُ إليه..

وضعت قصعة شخشوخة[4] أمام باب المقبرة ودعوت الله أن يجعل أجر إطعامها في ميزان حسناته، تجاوزت القبور وأنا أقرأ القرآن، وأدعو وأحوقل.. حتى وصلت إلى قبره، تلقفني الشاهد بتاريخ لم أنسه حتى أحتاج إلى أن أتذكره.. الثامن من أيلول خادع عام ألف وتسعمائة وخمسة وتسعين!

قرفصت بمحاذاة قبره، واستدعيت الكلام فأبى.. أشفقت عليه أن أقلق مرقده، وأنا الذي جئته منذ أيام أزف إليه خبر نجاحي.. فأطرقت أفكر، وأعجز عن الاهتداء لفكرة ذات جدوى.. فإذا بي أستعبر، فأبكي، فأشهق.. فشعرتُ بفؤادي يتخفف، ولوعتي تُشفى، وذهني يصفو..

مسحت وجهي بكمي، وقبّلت حافة القبر، وقمت مترنحة.. فإذا بالشمس تزحف نحو المغيب، أحسست أنني مكثت داخل المقبرة دهرا غسلت فيه قلبي من خوفه وحيرته!

استقبلتني أمي عند الباب بوجه طلق: العريس قال لخالك تجي لعندي وتكمل قرايتها على روحها.. ثم ابتلعت ابتسامتها حين لحَظَت التهدل تحت جفني.. تجاوزتها دون أن أعلق بشيء، أغلقت باب غرفتي ونمت..

---

(4) أكلة شعبية

لم أر أيـة كوابيـس تلـك الليلـة، لكننـي رأيـت أبي في الحلـم، يغـيّرُ قفـل البـاب..

وعيــت في تلــك الليلــة بالــذات عــلى المعنــى العميــق للمعيــة..

***

جوف الصّندوق

كطائر، يذهب خِماصًا ، ويؤوب بِطانًا..

تتأمل أمي ملامح الشّبعِ والطمأنينة على وجهي فتحدسُ أنني كُنتُ عِند عتيقة، صارت تتجنبُ مجادلتي حول الأمر، إذ أنها افتقدت -مع مرور الأيام، واستطالة قامتي - اللغة الكافية لإقناعي بما تريده.. لكنها ما زالت تُغلِقُ باب غرفتِها في وجهي ليلا.. ولا تشاركني طعامي لبضعة أيام أخرى حين تعرف أنني ذهبت إليها..

لم يخِف عداء أمي لعتيقة مذ سنوات طويلة، لا تزال تكرهها بالقدر ذاته، وتشتمها بطرق مختلفة، وتلمزها في كل اجتماعاتها النسائية، وبينما ظلت عتيقة على لا مبالاتها تجاه أمي وغيرها من النساء اللائي بادرنها بالضغينة دون سبب واضح، ظلت أمي ترميها بالدعوات واللعنات، خاصة حين تراني أتردد إليها، وأعود سعيدة منشرحة..

تجاوزت النقاش حول الموضوع حين حدست معرفتها بالأمر، قصدت غرفتي، سمعت صفقتها العنيفة لباب غرفتها.. فصفقت باب غرفتي أيضا بغضب لا أعلم مصدره..

ربما كنت خائفة فقط.. والخوف الذي لا يجد حضنا يؤويه يتحول إلى غضب هادر..

تحسست إبطي في حذر، كانت خبيئته تزداد حجما، لم أكن أتوهم!.. ارتدت إليّ أناملي بالكثير من الهلع، ورحت -وأنا أقرفص على الأرضية المبلطة الباردة - أقيس داخل رأسي احتمالات ما سيسفر عن التحاليل الطبية للخزعة المأخوذة من النتوءات البارزة بعد عشرة أيام، وإن كان هناك متسع داخل قلبي لفجيعة إضافية!

هششت هذا الخاطر الذي ظل ينهش راحتي مذ غادرتُ عيادة الطبيبة، وطَمْأَنَتْني -بغير ثقة - إلى احتمال أن تكون الكتلة حميدة، أو أنه سيتم التحكم فيها، واستئصالها لو كانت سوى ذلك!

ما فائدة تسميم الوقت بالاحتمالات ما دمت في كل الأحوال لن أظفر بإجابة أخيرة قبل أن تمضي العشرة أيام؟ يقول عقلي مُحاضرا..

ينكمش قلبي على وحدته، يضم قدميه الضامرتين إلى صدره، يشير إلى أنهما لم تعودا قادرتين على حمله.. وأن أسمح له بالانهيار لبعض الوقت..

أقلّده.. أضعُ كفيَّ على ساقيّ وأربت عليهما في لطف.. لا بأس بالإقعاء على فجيعتي قليلا.. ضممتهما إلى صدري كولدين ضائعين، وأسندت جبهتي إلى رُكبتي.. تحولتُ إلى

صنـدوق مغلـق، يحمـل أسرار بقائـه وفنائـه داخلـه.. مواقيـت حزنـه، وتفاصيـل بهجتـه.. أسـباب صمـوده، وتفككـه.. وذاكرتـه المعطوبـة التـي حملـت كل ذلـك..

رفعـتُ رأسي.. انفتـح الصنـدوق، وخرجـت منـه طفلـة صغـيرة، أزاحـت ذؤابـات شـعرها السـوداء مـن عـلى وجههـا فجاءتنـي ملامحهـا الكاملـة، فكـرتُ أننـي لـو أنجبـت طفلـة في المسـتقبل فلـن تكـون أقـل شـبها منهـا، كـما منـي..

قرفصَـت أمامـي تحـدّق بي كـما أحـدّق بهـا، ثـم وضعـت كفّهـا الصغـيرة عـلى كفّـي، فتسربّ إليّ مـن دفء راحتهـا حنـان غامـر شـلّ لسـاني عـن الحديـث إليهـا..

فتحـت فمهـا الصغـير لتقـول شـيئا، لكـن أمـي دفعـت بـاب غرفتـي بعنـف، فتلاشـت مـن أمامـي..

لم يكـن وجـه أمـي حزينـا بقـدر مـا كان ثائـرا، قالـت، والكلـمات تندفـع مـن بـين شـفتيها كطلقـات رصـاص متلاحقـة: تحـوسي تعـرفي مـع مـن خاننـي بابـاك؟

جفلت!

15

كان الرجل المناسب لكن لامرأة سواي!

وبينما كان ينظر إلى وجهي وشعري المنسدل دون أن يرف له جفن، كنت أتأمل جغرافيا يديه الكبيرتين اللتين راح يطفح منهما أمان غريب..

كدت أحبه، لولا سوء التناسق بين جسدينا وعمرينا ووجهينا..

شخص آخر لم يكن ليحدس أنه موعد خطبة، بل كان ليُخيّل إليه للوهلة الأولى أنه لقاء مربك بين فتاة ووالدها الغائب منذ وقت طويل، وجاء أخيرا ليفاجئ فتوتها الغضّة..

لولا نظراته الفجة التي انزعج منها خالي، لكنه ابتلع انزعاجه على مضض..ولولا عطري النفاث، وشعري الذي تحرر من رباطه على غير العادة..إذ كان بجسده الضخم، وشاربه الكث، وملابسه الواسعة، يبدو أكبر من الثلاثين.. وكنت بعودي النحيل، وملامحي الدقيقة، وسحنتي الخجولة أبدو كفتاة لم تتخط مرحلة البلوغ..

ظننت بغضاضة مفاهيمي عن الرجال في تلك المرحلة من حياتي أنه سيقف بعد دقائق ليُعلِن أن كومة العظام هذه لا تناسبه، لكنه على خلاف ذلك ابتسم، وانشرح، وتهللت ملامحه، ونظر إلى خالي لتنفرج شفتاه عن سن مكسور: لنتافهم على الشروط..

غاص قلبي في بئر سحيق، وشعرتُ بالبرودة تلسع شفتيّ.. وللحظة، لف رأسي حول العالم لفة كاملة دون أن يجد كلمة يسد بها الموقف!

الرجل الشرقي، على خلاف ما كنت أعتقد يحلو له أن يحصل على امرأة بإمكانه أن يدسّها داخل راحته ويُحكم قبضته عليها، دون أن يندلق منها ظفر واحد للخارج!

لحظة، قلت.. بصوت لم أعرف كيف اندلع من داخلي فجأة..جاءتني العيون الأربعة، عينا خالي المتوجستان.. وعينا العريس المتلهفتان..

لدي شرط، أضفت..كان بإمكاني أن أسمع اصطكاك أسنان خالي..تفضلي، قال الرجل الكبير، صاحب اليدين البغيضتين..

أريد أن أُكمِل دراستي أولا.. قُلت..

اتسعت عيناه: كنت أعتقد أنك ماكثة بالبيت، ردد الرجل نظراته بيني وبين خالي متفاجئا..

لبست سحنة خالي اللون الأزرق.. وقال ملتقطا

حروفه: كانت تدرس، كانت.. أما الآن فستتفرغ لبيتها وزوجها، ثم رمقني بنظرة مهددة: أليس كذلك صابرين؟

وقبل أن أجيب، قام الرجل من مكانه، فكاد شعره المشعث أن يلامس ثريا غرفة الجلوس: لقد جئت بناء على إخبارك لي بأن الفتاة منقطعة عن الدراسة تماما، أما وأن لديها رغبة في أن تتابع دراستها، فليس بوسعي أن أقف في طريقها..

ثم نظر إليّ نظرة عميقة وحزينة، وقال: بالتوفيق لك.. وغادر..

صاحب اليدين الدافئتين، كان أنبل مما توقعت!

كان خالي متضائلا في مجلسه، ثم قام ولحق به راكضا..

تلاسنا عند الباب بكلام لم أفهمه..

ثم عاد.. جارّا معه الجحيم، ركضت إليّ أمّي التي كانت تستفرغ في دورة المياه.. وحالت بيننا.. وانقسمنا لمجموعتين: خالي، ودنانيره الكثيرة، في جهة.. تدعمه ذكورته: الكعب العالي الذي استطال به على سورنا الشائك.. أماننا، وأنا وأمي والأنوثة ثالثتنا، متلازمة الضعف والهشاشة والنقص! وبيننا نهر من الدم يجري.. دم العائلة، ودم الشرف!

اقترب خالي من أمي، والشيطان يُطلّ من عينيه وقال لها: والله غير نخلي الفقر ياكلك يا وحد الـ.... وبصق في منتصف جبهتها لعابه الكريه..

ثـم اختفى مـن حياتنـا للأبـد.. لم أره بعدهـا إلا في كوابيسي، يحـاول امتطـاء سـور العـمارة دون أن يتمكـن مـن ذلـك، ليصلني خـبر وفاتـه بحـادث سـيارة بعـد أعـوام طويلـة.. لم أحـزن، ولم أشـمت.. لكننـي كنـت متأكـدة أننـا سـنلتقي في مـكان آخـر، وأسـأله عمـن أراق كأس الـدم أولا!

***

لعنة الذّاكرة

للسلالم ذاكرة.. نفشت ريشها في وجهي مستثيرة أكثر جنون خطاي،الطابق الأول، شبح هناء يقف عند عتبة باب منزلها، بعصابة الرأس البنفسجية إياها، الأقراط الفضية المستديرة، الشفاه المتشققة، والقامة المتهدلة.. تحمل بيدها اليمنى دلوا فارغا من الماء، ويتعلق محمد بساقها اليسرى مخفيا بها عينيه عني، تُكرر الرجاء إياه: صابرين بنتي قولي لأمك كشما تبعثلي قطيرة نتع ما ندير بيها لعشا..

كنتُ أمتعض من طلبها المتكرر هذا، فأختلق أعذارا كاذبة لأتملص منها:

حتى حنا خلاصنا الما خالتي هانا، قسلنا الزُّوَرْ لبارح.. وأنطلق كالسهم قبل أن أسمع ترجيا آخر..

لكنني هذه المرة شعرتُ بتعاطف حميم نحوها، وكأنني أكبرتُ فيها دور المرأة الرجل الذي كانت تتكبّده، والذي لم أع جسامته إلا الآن.. مددتُ يدي إلى الدلو لأتناوله من يدها لكن شبحها تلاشى، لأجدني كالبلهاء أمسك اللاشيء..

التفتُّ يمينا وشمالا، وحمدت الله أن لم يرني أحد..

دفَعتُني لأمضي أكثر/ أصعدَ أكثر.. كانت خُطاي تغالب ارتعاشها، وبدت القمة في تلك اللحظة كريهة ومخيفة ولا محببة..كدتُ أصطدم بعمار في الطابق الثاني إذ تزامن خروجه من المنزل مع صعودي،ابتسم، بملامحه الخمسينية التي لم تبهت وسامتها:

-وشراكي صبرينة؟

- بخير عمي عمار، الله يسلمك

- أدخلي تشربي قهوة، أمينة راها غير وحدها..

- نهار خلاف ان شاء الله..

الطابق الثالث.. رحتُ ألهث، وحلقي كان يحترق عطشا، وكأنما ركضتُ لعمرٍ كامل.. فكرت في أن أزعِجَ خلوة العجوزين لأطلب رشفة من الماء، لكنني ما لبثتُ أن تراجعت حين تذكرت أن لالة علجة لن تتركني أغادر قبل أن أجعلها ترى ابنها في تطبيق الماسنجر، ولن تصدقني حين أخبرها أنه أغلق حسابه (في وجهها) بعد أن أزعجته باتصالاتي الكثيرة بناء على طلبها.

تقول لي في كل مرة مكذبة حدسها -الذي لم يكن بوسعها إخفاء شبحه المطل من عينيها- أن الانترنيت لديه معطلة على الأرجح، وأنه حتما سيعاود الاتصال بها في وقت لاحق، وأن لا أتردد في أن أطلبها في أي وقت حتى لو كان متأخرا..

أهز رأسي موافقة: ما يكون غير خاطرك لالة علجة..

وأقوم من بين يديها تاركة إياها تتأمل بحزن خاطرها المكسور، المتناثرة شظاياه على الأرض..

أصلُ إلى الطابق الرابع بعد لأيٍ، أنزع تهذيبي وأبصق على الأرض، كدتُ أركلُ الباب، لكنني عدتُ وتذكرتُ أن الكريه الذي كان يسكن الشّقة قد نال جزءا من جزائه، إذ إنه يمضي شيخوخته وراء القضبان.. بعد أن عاث فسادا وجورا في العمارة، متكئا على معارفه النافذين في الشرطة باعتباره شرطيا سابقا، ترك المهنة وانتقل إلى العمل الحر، تجارة الفواكه والتي كانت محض خلفية وهمية لتجارة الممنوعات، لكنه وقع في كمين نصبه له أصدقاؤه بعد أن كبر سنه، وانتهاء صلاحيته..

رفعت رأسي إلى الأعلى حيث صديقتي وغريمتي.. انتابتني مشاعر كثيرة.. راح قلبي يقاومها.. كنتُ مستاءة، وثائرة، ومُختنقة.. مع رجاء ضعيف بأن تكون القصة التي سمعتُها من أمي منذُ قليل غيرُ حقيقية بشكل ما، محض مزاعم، تهيُؤات.. فلتكن حتى أكاذيب.. أي شيء عدا أن تكون الحقيقة بشعة ومرّة إلى هذا الحد..

تجاوزت الجسر الأخير إليها بمشقّة، وضعت يدي على باب شقتها وكدتُ أدفعُه.. لكن الذاكرة بصقت في وجهي صورة مأمون، وهو ينشق من خلفه.. ويجرّني إلى الزاوية، لتقفز الندبة يسار جبينه إلى قلبي، وتسكن هناك إلى الأبد..

طرقتُ الباب مرتين، دقائق وجاءني وجهها الناعس، قطبت جبينها مستغربة مجيئي وكنت قد غادرتها منذ وقت غير طويل، كادت أن تقول شيئا، لكن التثاؤب غالبها، فلوحت لي بكفّها أن ادخلي.. وسبقتني إلى المطبخ، انشغلت بإعداد القهوة.. لم أقو على الكلام، كنت فقط أراقبها بذهول وهي تتحرك بخفّة ورشاقة رغم تقدم سنّها..

ارتابت من صمتي، فرمقتني بنظرة جانبية حذرة..

- لِمَ لم تُخبريني أنكِ كنتِ على علاقة مع أبي؟

16

كلّ النسوة حول العالم اللائي كُنّ يُحرّضن المرأة على كنس الرجال السّامين من حياتها لم يلتفتن إلى الجزء الأهم في القصة: كيف نخوض حرب الرغيف بمفردنا؟ في مدينة تقليدية ذكورية مثل بوسعادة لا توجد بها مكاتب ذات أثاث أنيق، لا محلات نسائية، لا مراكز استشارات، ولا معاهد لتعلم البيانو! إنها بوسعادة المرأة القديمة التي لا تملك في جعبتها الكثير من الحيل وفنون الحياة لكي تُلقّنها لبناتها.. في بداية القرن العشرين لا تملك المرأة هنا الكثير من الخيارات لتعيش، أغلب النساء العاملات يتجسدن في نموذج آمنة المعلمة، أو هناء الخياطة..

كيف تعيش المرأة الفارغ ظهرها من رجل يا فرجينا ؟

تجيب: «إذا أرادت امرأة الكتابة فعليها أن تمتلك غرفة تخصّها وحدها وبعض المال»

يبدو أنك لم تفهمي السؤال يا آنسة: لا أريد أن أكتب، أريد أن آكل!

تتجاهلني فرجينا..

يُطلّ عليّ رجل عربيّ قديم من مجلدات التاريخ التي تركها أبي ويقول واعظا: تموت الحرّة ولا تأكل بثدييها!

تضحكُ عتيقة من قوله حتى تدمعُ عيناها.. وتقول ساخرة: قلّو موت وحدك!

أسبلت أمي الملحفة البوسعادية على جسمها، والتي لا تلبسها إلا في مناسبتين: الأفراح حيث تترك وجهها مكشوفا، والمآتم حيث لا تترك إلا عينا واحدة.. نظرت إليّ من خلال عينها الواحدة وهي تصفقُ الباب خلفها، أطلّ علي حُزنها منها.. لتعود بعد ساعة تحمل كيسا من الطحين، وبعض الخُضار، وثوبا لي للدخول الجامعي..

نظرتُ إلى وجهها فإذا بأقراطها مختفية، عضّ الذنبُ قلبي، وضممتها وأنا أبكي: آسفة.. آسفة..

قاطعتني يد خفيّة تقبض على عنقها: لا تقولي هذا، أنتِ ابنتي، وكل ما تبقى لي، ومن واجبي أن أضحي وأبذل كل ما بيدي لإسعادك.. قالت بصوت مهزوز

لماذا على كلمة ثقيلة مثل التضحية أن تُقحِم نفسها هنا؟ نحنُ نريدُ أن نأكل فقط أيها العالم!

لم يكن سهلا على امرأة مسيلية أن تفقد سؤددها، وربما كان من الأسباب التي جعلت أخوالي يرفضون أبي ابتداء رغم أن أمي أحبته بشدّة أنهم كانوا ينظرون بعين الشك والريبة إلى الفلاح البدوي الذي لم يكن يملك مقومات

الحياة الكريمة، حيث أنهم لمّحوا وصرّحوا له بأن نمط حياته لا يناسب ابنتهم المدللة، أمي.. غير أن إصراره، ومن ثم نزوحه من ريف سيدي عامر إلى بوسعادة جعلهم يرضونه بغير بالغ اقتناع.. لكن الآن وبعد وفاة أبي بعشر سنوات يخَيّلُ إليّ أنني ألمح في عيني أمي ندما خفيّا.. ربما للمآل الذي صارت إليه حياتنا، حياة بلا ضمانات.. كسرت قامتها المرفوعة، وتركت ندوبا عميقة على وجهها حيث أنها صارت تخفيه بالملحفة، ولا تنظر إلى هذه الحياة اللامألوفة إلا من خلال عين واحدة!

الصّدع

أطلّ الخوف من عينيها، هل تعرف هذه المرأة معنى الخوف؟

ازدردت ريقها ثم أشاحت بنظرتها بعيدا عني محاولة تجنّب ما كان يضطربُ داخل عينيّ من حيرة وألم،فتَحت الفرن، وأمسكت سهوا قالب الحلوى الزجاجي الساخن دون قفّاز.. ثم أطلقت صرخة، وتركته سقط من بين يديها ووقع على الأرض.. استندت على الحائط وعيناها مثبتتان على الشكولاطة المنثورة على الأرض، وصدرها يرتفع وينخفض..عرفتُ الإجابة دون الحاجة إلى شرح أكثر..رغم ذلك لم أتجاسر على التفوه بأية كلمة أخرى..

بقيت مسمّرة على مقعدي أراقبها وهي تكنس الزجاج المتناثر، وتمسح الأرضية، لم ترفع أبدا بصرها إلي، لكنها أخيرا.. وبعد أن يئست من أنني سأواصل الحديث، سحبت الكرسي المقابل لي، وجاءتني عيناها بدموع محبوسة..

استطعت أن أقرأ على صفحة وجهها في تلك اللحظة كم كانت هشة وضعيفة كما لم أرها طيلة حياتي..

– أحببتـه، قالـت بـكل بسـاطة.. كانـت تقصـد أبي، بطـل حكايتـي الخاصـة..

– مثله مثل مأمون، قلت ساخرة..

ابتلعـت سُـخريتي بمـرارة، وأطرقـت رأسـها بُرهـةً مـن الزمـن ثـم رفعـت رأسـها إليّ فـإذا بهـا تبكـي، كانـت تنظُـر إليّ وتبكـي.. كـما لم أرهـا أبـدا مـن قبـل، وخالجنـي شـعور عميـق أنهـا مـرّت في تلـك اللحظـات بأصـدق المشـاعر في حياتهـا عـلى الإطـلاق.. لكننـي كنـتُ غاضبـة، ولم أبادلهـا سـوى بنظـرات قاسـية وحـادة ومحتقـرة..

مسـحت عينهـا بكُـمّ ذراعهـا: لا ألومـك يـا صبرينـة، يـا صديقتـي الوحيـدة، هـا أنـتِ تنضمـين إليهـم، مـن كانـوا يرمـون شرفتـي بالقـاذورات، فقـط لأننـي اقتربـتُ مـن شيء يخصّـك..

تضاربـت المشـاعر في داخـلي، لم أفهـم أكانـت تخاطبنـي بمنطقـي ولغتـي اللـذان كانـت تعرفهـما جيـدا لتكسـب تعاطفي معهـا، أم أنهـا كانـت فعـلا بريئـة!

قلـت لهـا بمـرارة: أنـت محـضُ مخادعة! اسـتغللتِ سـذاجتي كل هـذه السـنوات، لأكتشـف في الأخـير أنـكِ كنـتِ عـلى علاقـة مـع أبي!

– الأمر ليس كما تفكّرين! صاحت بي..

- كفاكِ نفاقًا!

أمسكت يديَّ وضغطت عليهما بقوة: سأشرحُ لكِ كل شيء، لكن عديني أن لا تتهوري!

17

أعين (السطيح) مفتوحة على نسائه، لا تنام على موضع خطوهن، ولا حفيف أفكارهن.. لكنها تشيح وجهها عن همومهن، وحاجاتهن..

صائغ الذهب أسرّ لمأمون أن أمي باعت أقراطها، ففاجأنا عند مدخل العمارة بابتسامة غير بريئة.. استطعت أن أرى الدهشة التي اختلجت أمي من خلال عينها الواحدة وهي ترى الجار سيء السمعة الذي لم تتعد علاقتها به أكثر من التحية وردّها يكاد يلتهمها بنظراته الوقحة مخاطبا إياها بنغمة لم تعتد سماعها!

ضغطتُ على يد أمي وحاولت سحبها لتتجاوزه، فاعترضنا بوقاحة وسحب رزمة من المال من الجيب الداخلي لمعطفه ومعها قصاصة صغيرة دوّن عليها رقم هاتفه، وحاول دسها في حقيبة أمي عنوة، فدفعته بيدها الواحدة، بينما كانت الأخرى تُحكِمُ إمساك تلابيب ملحفتها لكي لا ينهتك سِترُها..

امتلأت رُعبا.. كنتُ أتقدم نحوه تارة، أدفعه عن أمي بيدي المتضعضعتين.. وأتقهقر أخرى تحت ضوء ذكرى

قديمة دسّها في مناخري، حيث صارت تنفثُ لاذعة داخل صدري، كلما رأيتُه أو اقتربت منه..

كان الشّارعُ خاليا وقت الظهيرة، وكنتُ ألتفت يمنة ويسرة والذّعر يملأني بحثا عن أي وجه أستنجد به.. أما هو فكان يزداد احتقانا وفجورا وهو يشدّ على ذراعِ أمي ويحاول إقناعها بالهمس والترّجي تارة، وبالسباب والحِدّة تارة أخرى.. وهي تلطِمُ جثّته الصّلدة الثابتة أمامها بساعدها الواهي، وقد تكشّف وجهها ودموعها وأنينها دون أن يُحرّك ذلك من جبروته شيئا!

أفلت قبضتَها فجأة وأمسَكَ رأسَه، لم نفهم ما الذي جرى له إلى أن لاح لنا وجه مقران الغاضب خلفه، ممسكا بعصاه ومنهالا عليه بالضربة تلو الضربة..

بدا مأمون صاغرا وهو ينحني تحت عصا مقران رافثا بقاموسه المُعتاد.. بينما راح هذا الأخير يبادله بكلمات أمازيغية بدا أنها شتائم من خلال طريقة لفظه لها رغم أنه لم يكن يفهمها أحد سواه، فبالرغم من أن مقران القاطن ببوسعادة منذ أكثر من عشرين سنة نادرا ما يتكلم بالأمازيغية إلا أنه في لحظات الغضب لا تنجده سوى لهجة أجداده النائمين بجبال جرجرة..

أفلت مأمون من عصا العجوز بصعوبة وابتعد مسافة وهو يُهدّد ويتوعد..

– أغـرزول.. اقجـون أزلاع.. صـاح مقـران والـرذاذ يتطاير مــن فمه

– إذا سلكت بيها بول عليّا.. رد مأمون.

رفـع مقـران أصبعـه الأوسـط في وجهـه: طـز! ثـم التفـت إلينـا بوجـه مُحتقـن، وأشـار بـأن نتبعـه، وهـو يلهـث ويتفـل ويحوقـل..

أمسـكتُ يـد أمـي، بينـما أحاطتهـا الحاجـة علجـة بذراعهـا، كانـت ترتعـد كصـوص حديـث الـولادة، وكنـت أسـير بجانبهـا مثقلـة بالذنـب والغضـب.. ذهبنـا إلى شـقة العجوزيـن، شرِبنـا منقـوع الزعـتر الجبـلي الحـار، وأخـبرت أمـي الحاجـة بـكل شيء..

أطرقـت هـذه الأخـيرة، ثـم عرضـت عـلى أمـي عمـلا: كـما تريـن يـا ابنتـي، أنـا وعمّـك (مقـران) وحيديـن، وأنـا لم أعـد قـادرة عـلى أشـغال المنـزل.. سـكتت قليـلا..

شـحب وجـه أمـي، وزاغـت نظراتهـا، ثـم قالـت بعـد هنيهـة: طبعـا.. طبعـا أنـا موافقـة..

أصرت الحاجـة علجـة عـلى أن نُقاسـمها الغـداء، بقينـا تحـت إصرارهـا.. بـدا لي وكأننـي أرى اللقيـمات تندفـع مكرهـة عـبر بلعـوم أمـي..

لاحقـا، وفي سـاعة متأخـرة مـن الليـل، حـين قمـت مـن فـراشي لأشرب كأسـا مـن المـاء، سـمعتها تبكـي وتبتهـل:

يا رب المستضعفين وربي..
إلى من تكلني..
إلى غريب يتجهمني..
أم إلى قريب أوكلته أمري..

***

قلباً لِقلب

لم أع إلا في وقت متأخر جدّا أن العين التي كنتُ أرى أبي بها: الضيقة (بمقاس الواقع)/ الواسعة (بمقاس خيالي)؛ شوهت لي مفاهيم مهمة ومتجذرة. لطالما أخبرتني أمي بهذا مرارا.. لكن حين أخبرتني عتيقة أن علاقتها بأبي كانت بالنسبة إليه مجرد نزوة، شعرتُ بشيء يتهشّمُ بداخلي، الكلام الذي كنتُ أهربُ منه سمعته على لسان أمي مرّة، ثم على لسان عتيقة مرّة أخرى..

رحتُ أبحث داخل وجهها عن شيء لأكذّبه لكنها كانت صادقة، صادقة جدا!

قالت: بينما أحببته من كل قلبي، لم أكن بالنسبة إليه أكثر من نزوة! والحقيقة.. أطرقت قليلا ثم أضافت: أنا من جررته إليها..

- ما الذي تقصدينه بهذا؟

سمعت تكتي مفتاح الباب الخارجي، ثوان وجاءنا وجه مرزاق، لم يلق التّحية، تفحّص كلينا، ثم سلّم كيس الخضروات لزوجته دون أن ينبس بشفة، ودون حتى أن يسألها

عـن احمـرار عينيهـا الـذي بـدا واضحـا للعيـان.. أولانـا ظهـره واتجـه نحـو غرفـة النـوم وأغلـق البـاب خلفـه..

هممـت بالمغـادرة، لكنهـا اسـتوقفتني: هـل تعرفـين أننـي أحببتُـكِ لأنـكِ تشـبهين والـدكِ؟ كلاكـما رآني بعيـدا عـن مـا يتقوّلـهُ النـاس عنـي.. قالـت برقـة

– وكان هذا جزاؤنا، جررته إلى حضنك، وخدعتني!

– حـين تعيشـين مـع رجـل مثـل.. وأشـارت إلى غرفـة نومهـا بسـخط.. سـتفهمين!

ازدردت ريقـي، وقلـت بارتبـاك: مـا الـذي يعنيـه هـذا؟ أنـتِ تكذبـين! كان بوسـعكِ أن تطلبـي الطـلاق.. رفعـتُ صـوتي كـما ارتفـع صوتهـا دون أن نكـترث إلى مـرزاق الـذي قطعـا كان قـد سـمع جـزءا مـن حديثنـا..

أمسـكتني مـن كتفـيّ بكلتـا يديهـا ودفعتنـي إلى الأسـفل لأجلـس، كان قلبـي ممتلئـا بالحقـد تجاههـا، لم أفهـم كيـف حُجبـت عـن ذهنـي سـنوات الأنـس الـذي تقاسـمتها مـع هـذه المـرأة التـي كانـت صديقتـي الوحيـدة، رغـم الفـروق الكثـيرة بيننـا..

كان أكثـر مـا أحبطنـي أنهـا فقـأت العـين التـي كنـتُ أرى بهـا والدي..كـم كان مؤسـفا أن الجبـل آوى إلى مغارتـه امـرأة مثـل هذه!

– عندما أطلبُ الطلاق، من سيؤمن لي لقمة العيش؟

ضحكت بسخرية: رب عذر أقبح من ذنب، عودي لأهلك، تدبري عملا.. افعلي أي شيء!

- لا أعرف أين أهلي، لقد كبرت في مركز للطفولة المسعفة.. قالت هذا وهي تنظر إلى عينيّ مباشرة..

شعرت بالسخونة تلسع وجهي، وشعري، وحتى أذنيّ.. خفضتُ رأسي وأنا أحارُ جوابا..

أضافت: لهذا السبب لجأت إلى والدك حين هددني مأمون لما أردت الانفصال عنه.. نشجت ثم أردفت: أنا لستُ شيطانا، كثيرا ما كنتُ أفكر بالتوبة والعدول عن خيانة مرزاق، لكن لا أباليته تقتلني، وبروده يقهرني، وعجزه يجعلني أموت مائة مرة! أشعر أن جسدي يهرم، رغم مستحضرات التجميل، والملابس، والعطور إلا أنني أشعر بجلدي باردا مثل جثة..

قلتُ بصوت خفيض: وما الذي فعله والدي حين أخبرتِه بأمر مأمون؟

- ضربه! قالت وقد استحالت تكشيرتها إلى ابتسامة: نعم ضربه، تخيلي؟ كانت المرة الأولى التي يحصل فيها شيء مثل هذا! أن يدافع عني شخص بهذه الطريقة! ثم..

هززت رأسي أن أكملي..

- أردتُ أن أتأكد إن كان لا يريد مقابلا

- مقابلا لماذا؟

- لضربه، لمساعدتي، للمرة الأولى!

- ولماذا قد يريد مقابلا؟

- لأنه لا شيء مجاني!

- وماذا فعلتِ لتتأكدي؟

خفضت رأسها: عرضتُ عليهِ نفسي كمقابل، لكنّه رفض بشدة، لكنني لم أيأس، وحاولت استمالته.. كنت أريد فقط أن أتأكد أنه لا يريد مقابلا.. لكنني لم أقصد أن أحبه! لكن لم يكن بإمكاني أن لا أحبّه! أمسكت فمها تكتمُ شهقة! لكِ أن تتخيلي كيف تعرضت للأذى طوال حياتي، هناك في المركز.. وحتى بعد زواجي بمرزاق، لم يكن هناك من يدافع عني.. كنت أصرخ وأشتم طوال الوقت لأدفع الأذى عني، لأنه لم يكن هنالك من يفعل! وجاء اعمر وفعلها، فكيف بإمكاني أن لا أحبه؟

هززت رأسي في رفض! كنتُ مصدومة في المرأة الأكثر ثباتا، المرأة التي سلمتها أذني وعقلي وقلبي سنوات طويلة، كانت -رغم كل ما كان يُقال ضدها- تبدو وكأنها تعرف جيّدًا ما تفعله.. لكنها ضربت صورتها داخل عيني بكرة بولينغ صلبة، فهشمتها!

رفعتُ رأسي لأجد مرزاق خلفها تماما، شعرت بقلبي يدقّ داخل رأسي.. وبأطرافي وقد تصلّبت.. لم يكن ينظر إلي، كان بصره مثبتا على ظهر زوجته..

18

كانت أمي تقضي بياض نهارها تخدُم العجوزين سيئي المزاج مقابل أجرة هزيلة بالكاد كانت تغطي مصاريفنا.. فاستلمتُ على إثر ذلك دورها في البيت، فكنتُ أمضي الأسبوع كاملا أدرس في الجامعة، ونهاية الأسبوع أطبخُ وأنظف.. حتى تحول مظهري إلى شبح كما قال حسام ضاحكا..

غصصتُ بمزحته الثقيلة، كنتُ أشعر بالتعب متغلغلا حتى عظامي، بينما راح يطيش بكلام دون معنى.. لم أعلّق بشيء، لكنني أعدتُ إليه كوب القهوة الذي اشتراه لي ولا تزال رشفته المرة عالقة بحافة لساني.. ثم أوليته ظهري وغادرت..

الحقيقة أنني لم أغضب كثيرا من الموقف، لكنني كنتُ غاضبة من أشياء أخرى كثيرة.. ووددت للحظة لو يراضيني حسام بدلا عنها، أردته أن يعتذر لي عن كل السوء الذي لحق بي حتى تلك اللحظة، أردت أن يمنحني طمأنة كاذبة، تربيتة لطيفة على كتف قلبي.. تعويضا من نوع

مـا، تأسـفا.. تقمصـا للحالـة التـي كُنتهـا.. تفهـما لحالـة بـؤسي وفقـري ووحـدتي وحاجتـي.. لكنـه لم يفعـل!

كان ورائـي، وكنـتُ مـن ابتعـد أولا.. غارقـة داخـل ذاتي، وهمومـي، ونرجسـيتي.. تركتـه في ذلـك اليـوم خلفـي، منتصبـا كعلامـة تعجـب.. وقـد توقـف عـن طـرح الأسـئلة عـليّ، وعـلى نفسـه.. مكتفيـا بقيـاس الهـوة التـي بيننـا بعينيـه، مقتفيـا بنظـره أثـر غزالتـه الشريـدة، وقـد وجـد نفسـه فاقـدا رغبـة اللحـاق بهـا..

مـرّ أسـبوع عـلى تلـك الحادثـة لم أسـمع فيـه صوتـه لأول مـرة مـذ عرفتـه منـذ ثـلاث سـنوات.. رحـتُ أكابـر، بينـما كان قلبـي داخـل صـدري يختنـق مـن لوعتـه.. في اليـوم الثامـن انهـرت مستسـلمة، وأمطـرتُ هاتفـه بثلاثـين اتصـالا عـلى مـدار يـوم واحـد، وفي كل مـرة كان يخـبرني فيهـا نظـام الـرد الآلي أن الخـط مغلـق في وجهـي كان يقينـي يـزداد بأننـي خسرتـه للأبد..

في كل مـرة كان الهاتـف يبتلـع أصابعـي المرتجفـة، كان حـدسي يـدق داخـل رأسي ناقـوس النهايـة، معانـدا قلبـي الـذي كان يسـلك أعـذارا كثـيرة، ويخلـق احتـمالات لا نهائيـة، لا تحتمـل إحداهـا فراغـه منـي..

حـين ينبـت الحـب في السادسـة عـشر، فإنـه يلقـي بذرتـه داخـل الكبـد.. ويصبـح المحبـوب ابنـا.. لا طاقـة للقلـب عـلى فجيعـة ثكلى..بـل إن حسـام كان ابـن روحـي، فيضـا منهـا.. جناحـا لهـا، لا يشـبه غيابـه سـوى محاولـة انتـزاع مسـتحيلة لبعـض منـي..

كان اللغة العالقة بطرف لساني، السابحة بمفرداتها التي تراكمت طيلة ثلاث سنوات داخل ذائقتي، فصرت أفكر بها، وأعبر من خلالها، وأتجلى فيها.. فكيف لي أن أجترح احتمال غيابه، أو خسارته.. أو انتزاعه؟

لم يكن ذلك محتملا حتى.. لولا أنه راهن على إذلالي..

لولا أنه وضعني في كفة مع امرأة أخرى، بل ورجّحها عليّ.. وأهدى لها فرصة إغاضتي على طبق من ذهب.. أراد لوهلة أن يجعلني أغار بأن تسكع مع صابرين راجعي، زميلة المدرسة، البذيئة، الثرية، المتعجرفة.. التي لاحقته طويلا لتحصل عليه، وتغيظني، وتسجّل ضدي نقطة أخيرة.. لكنني كنتُ أكره التسابق في الحب، كنتُ أراني معه شخصا متفردا لا تجوز مقايضته، ولا منازلته، ولا مقارنته، ولا استبداله..

***

تلوث صوتي

- قهوة..

لم تلتفت إليه، لكنها أغمضت عينيها في يأس، تجلّت أمام ناظري الصورة الكاملة، النسخة الحقيقية لحكاية عتيقة التي مذ جاءت إلى حي السطيح ببوسعادة منذ ثمانية وعشرين عاما، وقطنت هي وزوجها غريب الأطوار رأس العمارة، وهي تجرّ خلفها الأسئلة، والتقولات أينما ذهبت، وبدت.. تسحب النساء أزواجهن من كل شارع تمر به، لكن عطرها النفاث كان يتسلل عبر النوافذ، فيثير مخيال الرجال الذين اشتهوها، وتمنّوها، دون أن يدركوها تماما، إذ كانت ترديهم طريحين قبل نوالها بخطوة..

ولم يكن (اعمر) استثناء كما توهمت..

أو أن أمي لم (تسحبه) كما ينبغي،

تداركتني عتيقة عند باب الخروج: يجب أن تسمعي الحكاية كاملة!

- سمعتُ ما فيه الكفاية!

- لم تسمعي الجزء الأهم!

صحت: لا أريد أن أسمع أكثر!

- الأمر له علاقة بوفاة والدك، قالت وهي ترتجف..

شعرتُ بالسخونة تلسع وجهي، وشفتي: ما الذي تهذي به هذه العاهر؟

ظهر مرزاق خلفها مجددا: القهوة باردة..

التفتت إليه هذه المرة، ورمقته بنظرة شزراء، لكنه لم يُبدِ أية تعابير على وجهه.. انتزعت الفنجان من قبضته بغضب، وجرّت حذاءها نحو المطبخ.. استغللت الأمر لأفرّ من بين يديها كالممسوسة، كدت أقع أثناء نزولي مرتين، بدت الرحلة إلى القاع طويلة، ومنهكة..

جاءني وجه أمي الخائف أول ما فتحتُ باب الشقة، تجاوزتها متجاهلة أسئلتها المتلاحقة، أغلقت باب غرفتي بالمفتاح، بينما لم يتوقف قرعها ولا أسئلتها، انسللت تحت البطانية، وانكمشتُ كجنين.. ووضعتُ وسادة على أذني لكي أطفئ الأصوات داخلي ومن حولي..

رنّ هاتفي برسالة من عتيقة: لا يمكنني حبس هذا السر أكثر من هذا، اسمعيني، أرجوك!

لم يتوقف طرق أمي على الباب: صابرين، ابنتي.. ماذا أخبرتك تلك العاهر؟

رسالة أخرى من عتيقة..

أمي تجرّب فتح الباب بمفتاح احتياطي..

صوت أبي تتقيؤه الذاكرة: كي صبحت الوردة نتاعي؟

الكتلــة تحــت ذراعــي الأيمــن: لم تتفحصينــي اليــوم، لقــد صرتُ أكــبر!

اخرس قليلا أيها العالم..

اخرس!

19

لم أكره حسام تماما، لكنني عجزت عن مسامحته حين تكشّف لي عن فتى نزق مندفع، بينما كانت عدستي تراه أكبر من ذلك، إذ رحت أحاكمه بالمقاييس المثالية لفارس الأحلام: النسخة التي لم يكن عليها في الحقيقة، هالتني حقيقته، عدم نضجه، وردود أفعال المتسرعة وغير المدروسة، كان أقل ثباتا من أن أستطيع الارتكاز عليه، دون أن أنتبه وأنا أقاضيه إلى أنني أتحمّل جزءا من غلطته، وأن لي أيضا نصيبا من اللاثبات الذي كنت أعيّره به، لكن لم يكن بوسعي أن أراني بشكل صحيح، أنا التي خبرتُ عواصف كثيرة وأنا بعدُ في التاسعة عشر من عمري، لم أكن أراني أقل من بطلة عليه أن يكون ممتنا لها دائما لأنها لا تزال -رغم كل ما مر بها- قادرة على إعطاء الحب واستقباله.

افترقنا كشقّي تمرة نخرها السوس.. فصرنا أنصافا قصية.. وبينما افتتح عالم النساء بغريمتي صابرين، استعضتُ عنه بالكتابة، ورحتُ أنزف حبرا كلما اشتقت له.. لكن المفارقة أنني لم أكتب عنه، لكن عن أبي.. كما أفعل دائما حين أنكسر، أستدعي بطل حكايتي الأولى: أبي الجبل.

لطالما كانت الكتابة بالنسبة لي رديفة الخسارة، منذ اكتشفتها أول مرة حين فقدتُ أبي، وخلال كل الخسارات التي تلت الحادثة كنتُ أتخفّف بها من فراغ يدي، وقلّة حيلتي: حين ماتت قطتي، وحين أحرق خالي عصام دميتي حياة بحجة أن الدمى حرام، وحين أقصاني أستاذ التربية البدنية من اللعب لأنني عجزتُ عن شراء لباس رياضي، وحين لم تدعوني ابنة المدير لحفلة عيد ميلادها، وحين وضعتُ أحمر الشفاه أول مرة استعدادا لاستقبال الخاطب الذي جاء به خالي، وحين صاحت لالة علجة في وجه أمي لأنها أوقعت طقم أسنانها على الأرض بالخطأ.. كنتُ أهرب من مضخّة الألم والخوف والشعور العارم بالاستباحة إلى الكتابة، كنتُ أجدني في كلّ مرة -بدلا من أن أقيّد حرائقي- أنحرف عن الزمان والمكان والذاكرة لأكتب عنه وله، غضبا من رحيله المبكّر، واشتكاء من تضعضع يديّ، واحتماء به من كل الأيام العصيبة التي مرت بي منذ غيابه..

تبلورت الكتابة داخل حياتي كحاجة لاستبقاء عقلي قيد التوازن قدر الإمكان، ولم أفكر أبدا في تصنيفها بمرتبة أكبر من ذلك إلى اللحظة التي التقطت فيها تصريحا عابرا في مجلة صفراء للكاتبة سيمون دي بوفوار تقول فيه: «في البداية أتناول كوبا من الشاي، وحوالي العاشرة، أشرع في العمل إلى حدود الواحدة..» شدهت لطواعية الكتابة بين

يديها وكيف أنها تطورت لديها إلى الحد الذي صارت تضرب لها موعدا يوميا!

سرح بي ذهني حين التقطت هذه العبارة إلى عشرينات القرن الماضي، الفترة التي عاشت فيها سيمون، حيث تخيلتها بتنورة تنحسر عن ساقيها، تؤرجح ساقا، وتُثبّتُ أخرى بكعبها العالي، وتنظر إلى الورقة الفارغة على المكتب من علٍ وهي تمتصّ عقب سيجار..

هششت الصورة عن ذهني بانزعاج، لم تكن تشبهني، ولا تقترب مني حتّى..

فرددت بقية الصحيفة الصفراء المطوية لألتقط المقال كاملا..

وجدت تصريحا آخر في ذات السياق لأجاتا كريستي تقول فيه: «كانت الكتابة لدي بمنزلة مهام أقوم بها بشكل متقطع مختلس، لم يكن لي مكان محدد أبدا، مثل مكتب أو أي فضاء آخر ألوذ به طلبا للعزلة والكتابة.. طاولة حوض غسيل مغطاة بالرخام كان مكانا مناسبا للكتابة، مائدة للطعام، ما بين وجبة وأخرى تنفع أيضا... أفعل مثلما تفعل الكلاب عندما تظفر بعظم، تنسحب بحذر ولن تراها إلا بعد مرور نصف ساعة. تعود بخجل وخطمها موحل. أنا أفعل الشيء نفسه تقريبا. أشعر بنفسي في قمة الخجل وأنا منصرفة للكتابة..»

التقطت مقولة أجاتا ببهجة، خبأتها داخل مفكرتي

بعنايــة بالغــة، فكــرت أن إحــدى الأيــادي البيضــاء للكتابــة تتجشــم عنــاء شرح أكثــر المشــاعر عمقــا وضبابيــة، كــما فعلــت معــي مقولــة أجاتــا.. كــما فكــرت أيضــا أنــه مــن الممكــن ربــما أن أتحــول إلى كتابــة روايــات الجريمــة يومــا مــا، مثلهــا.. ربــما يســاعدني ذلــك في شرح الغضــب الــذي يسّــعر بداخــلي.. لكــن لم يخطــر لي أبــدا أننــي بــدلا مــن ذلــك سأعيشــها!

***

أيّها العيد العنيد

تكره النساء الوحيدات أعياد ميلادهن، لأنه يذكرهن بالتهنئة النّاقصة، بقارب العمر الذي يتهادى وحيدا في حيرة المجهول، في الأمنية المعلّقة بدوام المعيّة..

في السنوات الأخيرة، صار عيد ميلادي المناسبة التي نختصر فيها أنا وأمي المسافة بيننا، حيث نتّفق بشكل ضمني على إحلال السّلام ليوم واحد، نجتمع صباحا على مائدة الإفطار، تقول لي بصوت دافئ معتذر -عن أشياء لا تعترف بها-: كل عام وأنت ابنتي.. أبتلع الرشفة الأولى من فنجاني وأبتسم لها من أعماقي، هذه المرأة أمي رغم كل شيء، في كل مرة أهم أن أسألها عن سر هذه التهنئة؟ أنا ابنتها فعلا، ابنتها بكل ما أطيق من بِر.. بكل ما أحمل من عتب أيضا.. فما الذي جعلها تشك؟

تضيف:

- حاولي أن تنصرفي باكرا من العمل هذا المساء، أسألها بمداراة:

- لم؟ وأنا أعلم إجابتها مسبقا.. تجيبني بعينين مبتسمتين:

- مفاجأة!

تحضر لي كعكة بالفانيلا أو الشكولاتة وشمعتين لكلينا، تطفئ كلا منا واحدة، وتتمنى أمنية، أهدي أمنيتي دائما لأبي، أتمنى أن يكون بخير حيث هو.. وبينما تهدي أمي أمنيتها لي، كانت تتمنى أن أحصل على عمل، ثم صارت تتمنى لي زوجا صالحا..

أقبّل رأسها ويديها، وبين هدبي تتأرجح دمعة، أبتلعُها مكابرة، وأهدي لها الوردة التي تحب: نرجسة بيضاء ذات ساق طويل.. لا تقول لي شيئا، تولّيني ظهرها وهي تبحث عن إصيص لتضعها فيه وتهرب بدموعها هي الأخرى..

بينما تتراوح هداياها لي ما بين شرشف سرير جديد أو ستارة نافذة، أو أي غرض (بيتي).. أنام ليلتها وأنا أشتم رائحة أمومتها بين حنايا الغرفة، ومشاعر متناقضة ما بين الأنس، والذنب، وكذا الاشتياق لأبي الذي لو كان موجودا لم يكن ليجعلني أعيش يوما واحدا فقط، بل أحتفي بكل أيام السنة الماضية كما التالية..

لكن عيد ميلادي هذا العام استثنائي، أشعر أن سنيني الثلاثين أهدتني تشكيلة مفاجآت بمناسبة إتمامي ثلاثة عقود وأنا لا أزال واقفة على قدمي بخُيلاء كنخيل بوسعادة، وهي تريدني أخيرا أن أجلس، أو بالأحرى أنحني على ركبتي: ورم تحت إبطي يكبر هلعه، وتتعاظم احتمالاته فزعا كل يوم، صدمتي الكبيرة في رفيقتي الوحيدة عتيقة،

ووشوشتها المجنونة بأنها تعرف من قتل والدي، وشتات رواية تنتظرني لأرتق ثوبها، تنظر إليّ بدايتها المثيرة بتحدّ وتراهن عليّ أن أكملها قبل انتهاء الأسبوع الفاصل عن عيد ميلادي.. لا رغبة في الكتابة بحد ذاتها، ولا سعيا للحصول على مخطوط بإسمي، بقدر ما هو استفراغ لكل ما حصل، وتخففا من كل الكلمات العالقة، ورغبة لحوحة في ترك متسع لما هو آت..

وأية حكاية هي..

«حكاية مؤخرة العمارة التي يحيط بها سور شائك، وتجلس فوق رأسها خمسة طوابق غاضبة!»

[نص اعتراضي]

عن الكاتبة:

إنها المرة الواحدة والسبعون التي تراودني الفكرة إياها.. حذف كل الصفحات السابقة بكبسة زر والتنهد راحة.. لكن -وكما قال بول أوستر-: «كلما هممت بالانتهاء من كتابة ما أنا قابضة عليه، حتى أجدني أكثر ترددا في المضي إلى آخره. ففي مسعاي لتأجيل لحظة النهاية، أوهم نفسي بأنني قد بدأت للتو، وأن الجزء الأفضل من قصتي لا يزال يستلقي في الأمام...»

اعتقاد جزافي يراودني بأن الصفحات القادمة قد تحمل شيئا يحتفى به، رغم التفاصيل التي حشرتها في الصفحات السابقة والتي لا أعرف كيف سأتصرف حيالها.. قلت أشياء كثيرة ومتشابكة ينبغي عليها أن تُضخّ في نهاية ملحمية.. إلى حد كتابة هذه الكلمات لا أدري على أي شاكلة ستكون، ولا أدري إن كنت قادرة على تطويع أحرفي لشيء مماثل..

أحاول تحييد نظرتي إلى صبرينة قدر الإمكان، أحاول أن أفردها أمامي كنصّ تقني، أعالج معطياته، أتحرّى أسبابه ثم أكتب له نهاية (منطقية) استنادا لما هو عليه في الحقيقة،

لا مـا أتمنـى أن يكونـه! لكننـي أشـعر بعجـز حـاد.. تلسـعني مفاتيـح الكايبـورد، ويعضّنـي الذنـب مـن كبـدي، وكأنّهـا ابنتـي.. وكأنهـا صديقتـي الأثـيرة.. وكأنّهـا أنـا!

أحـاول تخفيـفَ نظرتهـا الأسـطورية لوالدهـا، أحـاول أن أجعلهـا تشـفى منـه، مـن حضـوره، لا مـن غيابـه.. رغـم خيانته لوالدتهـا، وارتمائـه في حضـن صديقتهـا الوحيـدة إلا أنهـا مـا زالـت قبيـل عيـد ميلادهـا الثلاثـين بأسـبوع، وبعـد اثنتـين وعشريـن سـنة مـن وفاتـه تتمنـى أن تغـرس وجههـا المتعـب في حضنـه، وأن يضـم كتفيهـا إلى صـدره بيديه، شاسـعتيْ المسـاحة، عميقتـيْ الأخاديـد..

أحـاول أن أجعلهـا تتفهـم والدتهـا، تُمَطِـقُ ضعفهـا.. تعـذِرُ حسـام، تتجـاوزه بإدراكهـا لا بكبريائهـا.. تكتـب بحـب لا بغضـب.. تسـامح ذكرياتهـا، تسـامح نفسـها.. لكنهـا عصيـة مثـلي، قسـت عـلى نفسـها وعـلى مـن حولهـا، فقسـت عليهـا الحيـاة..

إنّهـا تريـد المسـتحيل، ولكننـي مهـما غذّيـتُ خيـالي لأكتـب لهـا حكايـة ترضيهـا فإنّنـي لا أسـتطيع أن أجعـل نافـذة مـن السّـماء تُفتَـحُ لهـا لتعيـدَ والدهـا إلى الحيـاة.. لا أسـتطيع أن أجعـل الزّمـن يعـود إلى الخلـف ليتعلّـق حسـام بثوبهـا بـدلا أن يخونهـا.. لا أسـتطيع أن أجعـل خالهـا عصـام أبـا بديـلا وليـس متنمّـرا يتغـذّى عـلى يتمهـا.. كـما لا أسـتطيع أن أجعـل لالّـة جوهـر تتنـاول قرصـا سـحريّا فتُصبِـح فجـأة امـرأة قويّـة كـما تتمنّـى!

إنّها قوانين لعبة لم أخترها أنا عزيزتي صبرينة، وبودّي أن تعرفي أننا سواء: أنا الحكّاءة، وأنتِ الكائن الورقي مجرّد دمى معلّقة بخيوط لا مرئية تحرّكها قوى فوقية لا طاقة لنا بالتحكم فيها ولا مساءلتها حتى..

أنا الحكّاءة هنا يا صبرينة،لست أفضل حظا منك حتى وإن توفّرت بين يديّ رزمة الحروف والمعاني هذه، والتي أعطتني القدرة على جعلِك موجودة، تضحكين قليلا.. وتبكين كثيرا، وتتساءلين تحت غطائك وحيدة عن أي ذنبٍ أصبتِ حتى أجعلكِ عالقة هكذا في شركِ أقدار لا تفهمينها!

أنا أيضا عالقة، وأنا أيضا يُستعصى عليّ الفهم مثلك، فساعديني ولننهِ هذه الحكاية بلا عناد، ولا تجعليني أسأل للمرة الثانية والسبعين: هل عليّ فقط أن أحذف كل الصفحات السابقة وأتنهد!

***

عتيقة

في كل مـرّة يطـلّ عـليّ وجـه صبرينـة مـن البـاب أغـصّ بمشـاعر لم أجـد سـبيلا إلى تبديدهـا رغـم مـرور السـنوات، يحرقنـي الحـبّ والذنـب معـا، فوالدهـا الرّجـل الوحيـد الـذي أحببتـه، وكنـت سـببا في موتـه.. أنـا التـي يعـود الفضـل الأول لبقائـي قيـد الحيـاة إلى حـدّ الآن هـو قسـوة فـؤادي، وجلافـة شـعوري، أجـد قلبـي يسـتحيل إلى آنيـة هشّـة يخدشـها انفـراج عينيهـا الكحيلتـين -الشـبيهتين بعينيـه- حين تفـرح أو تندهش.. ويهـزّ حـسي طريقـة انصرافهـا -المطابقـة لطريقتـه- ويجعلنـي أخشـع تمامـا نـبرة صوتهـا الجبليـة -المنشـقة عـن صوتـه- حـين تنفعـل.. لهـذا اسـتبقيتها بمعيتـي كل تلـك السّـنوات، كنـوع من أنـواع الأنـس.. أو التكفـير عـن ذنبـي بالاعتنـاء بهـا، وتبديـد وحشـتها لكننـي لم أقصـد أن أتشـابك معهـا إلى هـذا الحـد، لم أتخيّـل أن تسـتيقظ دواخـلي التـي خلتهـا جوفـاء حشـفاء تمامـا نوعـا مـن مشـاعر التعاطـف تجـاه هـذه الصغـيرة التـي ألفيتهـا أوّل مـا وطئـت قدمـاي بوسـعادة محـض رضيعـة كثيرة السّـقوط والبـكاء، كـما لم يخطـر ببـالي قـط أن يصـل بي الشـعور بالذنـب أن أعـترف بغلطتـي لهـا.. لكننـي عـلى يقـين تـام أنهـا ستسـامحني..

وأن قلبها أبيض مثل قلب أبيها رغم ما بدر منها من عداء في آخر لقاء لنا..

جاءت بعد محاولتي الألف..

تحاشيت النظر إلى عينيها وهي تدلف باب شقتي، سبقتها إلى المطبخ حيث كنتُ قد أعددت مسبقا صينية القهوة، والحلوى المحشوة بجوز الهند كما تحبّها، لكنّها لم تتبعني.. التفتُّ بحذر فوجدتّها واقفة بالبهو مصالبة ذراعيها.. ازدردت ريقي:

- ألن تجلسي؟

طالعتني بنظرة لم أعهدها وقالت:

- هاتِ ما لديك..

غمغمت وأنا أنظرُ إلى الأرض أبحث عن بداية ما:

- حسنا.. ثم استَدركت:

- أنتِ تذكرين ذلك اليوم دون شك!

قطبَت مستفهمة:

- أي يوم؟

تدفقت الحرارة إلى وجنتي ولسعت جبهتي، ارتبكت: حين فتحتِ باب الشقة فجأة ووجدتني هنا مع... مع مأمون.. مضى وقت طويل أعلم، لكن أظنك تذكرينه!

هزت رأسها بإيجاب ولا تزال نفس التطليعة على وجهها، ما جعلت الكلمات تتبعثر بين شفتي.. وتفقد

الطريق إلى الاعتراف الذي أخاله سيكون شفاء وخلاصا لي..

أوليتها ظهري وحملت صحن حلوى جوز الهند بين يديّ.. أردت التودّد إليها لأخفف عنها وطأة ما ستسمعه، وأشيح عن وجهها قناع القسوة التي راحت ترتديه مؤخرا أمامي، أنا التي أعلم بها منها.. إذ إنني خبرت فيها خلال أهم سنين حياتها أن دواخلها نقية من كل ضغينة.. لكن أصابعي كانت ترتجف بشكل لم أعهده!

أعدتُ الصحن إلى مكانه، وأسندتُ كفّي على حافة الطاولة كي لا أقع..

جاءني ذراعاها الحانيان -كما أعرفهما- واللذان نموا أمام عيني كفسيلة راحت يوما بعد يوما تعانق الهواء،

ساعدتني على الجلوس، وجلست هي الأخرى في الجهة المقابلة لي، وقد نزعت قناعها أخيرا.. وبدت أمامي طفلة مجردة من كل حيلة أو موجدة..

عدّلت جلستها، وقالت بتوتر أقل، وبملامح أكثر تسامحا:

- أخبريني ماذا حصل بعد تلك الحادثة؟

ازدردت ريقي، وشابكت أصابع يداي لأمنعها من الارتجاف:

- بعدما ضرب والدك مأمون لم يكف عن مضايقاته

لي، وعـاد لابتـزازي إن لم أسـتجب لرغباتـه مجـددا فسـيجعلني أتعفـن في السـجن.. وتحـت ضغطـه المتكـرر، وافقـت عـلى طلبـه شريطـة أن تكـون آخـر مرة..وكانـت هـي تلـك المـرّة..

عـصر الألم جـوفي وأنـا أتذكـر تفاصيـل ذلـك اليـوم، كيـف هجـم عـلى شـقتي كوحـش مسـعور بعدمـا انـصرف مـرزاق إلى دوامـه، ركـض نحـو الشرفـات وأغلقهـا، ثـم اسـتباحني بغـير ضمـير..

– ثم ماذا؟ سألَت بصبر نافد..

حـين اقتحمـتِ علينـا الشـقة، فكـر مأمـون أن والـدك مـن أرسـلك لكـي تتجسـسي عـليّ.. أذكـر أنـه بعـد مغادرتـك عـاد إليّ وقـال لي عبـارة ظلـت تـرن في أذني:

– سأجعل ذلك النذل يدخل إلى العمارة في موكب..

اختفـت مـن أمامـي قبـل أن أنتبـه حتى..ارتخـت كل أطـرافي، وحتـى روحـي ارتخـت..كان مخاضـا عسـيرا ومتأخـرا.. كـما كان حتميـا..

لالّة الجوهر

مـا لم أسـتطع إيصالـه لصبرينـة هـو أن رغبتـي اللحوحـة التـي ألاحقهـا بهـا بشـأن الـزواج هـي لهـدف واحـد هـو أن تقـترب مـن الأمومـة، وتفهـم مـا معنـى أن ينبـع الحـب مـن باطـن الكبـد.. وأن هـذا الحـب هـو أصـل كل شيء..

صبرينـة التـي جـاءت شـبيهة أكثـر بأبيهـا، وقليـلا بي.. تعـدّد لي عيـوبي الكثـيرة، تصريحـا وتضمينـا.. تطيـش بكلـمات حـادة، تصفـق بـاب غرفتهـا في وجهـي، تحمـل صحنهـا مـن أمامـي لتـأكل منفـردة.. وتغيظنـي بأوابهـا المريـر إلى غريمتـي عتيقـة، هـي تعتقـد أنني لسـتُ (أمّـا) كـما يجـب.. لأنهـا لا تفقـه شـيئا عـن معنـى الأمومـة، لهـذا أردتُ أن تقترفهـا لتفهمنـي، وتغفـر لي مـا تعتقـد أنهـا ذنـوب جنيتهـا في حقّهـا!

مـا يخيفنـي أكثـر في صبرينـة أنهـا في غيـاب أبيهـا روّضـت جـزء منهـا ليكـون رجـلا، فصـارت تواجـه الحيـاة بكتفيهـا لا بقلبهـا، وبعقلهـا لا بحدسـها، وبمقدّمـة حذائهـا لا بأطـراف هُدُبِهَـا.. لهـذا فشـلت ابنتـي الجميلـة الذكيـة المميّـزة في تُكويـن أسرة.. ولهـذا أخشـى أن لا يطـرُقَ الحـبّ بـاب كبدهـا، فـلا تغفـر لي أمومتـي المشـوّهة بنظرهـا!

ثلاثينيــة ابنتــي تقــترب، وفي الضفّــة الأخــرى صــارت خطـواتي قريبـة إلى اللحـاق بأبيهـا، ينهكنـي مـرض السّـكري، والذّكريـات، وتراكـم جثـث الخيبـات داخـل قلبي..لهـذا قـرّرت أن أحــاول للمــرة الأولى، وربــما الأخيرة..هاتفتــه:

– وافيني في لارتيزانا[5] بعد نصف ساعة..

جـاء لاهثـا بعـد عشريـن دقيقـة، بطولـه الفـاره، وهندامـه المبعثـر.. وعلامـة اسـتفهام قلقـة عـلى وجهـه، داراهـا ارتباكـه وخجلـه اللـذان يطفحـان عـلى وجهـه في اللقـاءات القليلـة التـي جمعتنـي بـه..

ابتدرته:

– صبرينة لا تعلم أنني طلبت لقائك..

بصق الخوف داخل عينيه:

– هي بخير؟

هززت رأسي:

– هـي بخـير.. أو هـي عـلى الأقـل تحـاول أن تكـون كذلك! صـارت علامـة الاسـتفهام أكبر..

– أنت لم تتزوج بعد، صح؟

فاجأه سؤالي:

– لا، لم؟ غمغمت:

---

(5) حي في بوسعادة

– صدق حدسي إذا، لقد كذبت عليّ..أضفت:

– هل مازلت تحبّها؟

أشاح بوجهه إلى الجانب الآخر دون أن يفلح في مداراة حسرته، مرّ بعض الوقت قبل أن يقول لي:

– أنا منته منذ زمان بالنسبة لصبرينة، لهذا لا جدوى من الإجابة عن سؤال مثل هذا!

– هذا ما هو موجود داخل رأسك، لا ما هي حقيقة الأمر عليه!

شدَهَ دون أن يقول شيئا..نظرت إليه باستعطاف:

– اتبعني لو أردت حسام..

ارتخت ذراعاه، وبرق الأمل داخل عينيه هذه المرة..لقد كنتُ محقّة، لم تكن صبرينة تحتاج إلى أكثر من إذابة الجبل داخل رأسها، لتنجح في الحب والحياة.. كان عليها أن تحفر نفقا داخل كردادة الحائل بعناد دون مبتغاها..

صبرينة

– عمت صباحا سيدي المحافظ، اسمي صبرينة، اليوم عيد ميلادي الثلاثون، وجئت هنا لأهديني بعض الحقيقة!

فغرت سحنته في وجهي:

–هل من خطب يا آنسة؟

ابتعلتُ جملتي السخيفة، أردتُ أن تقول لي عيناه شيئا ما، أن تبعثا لي بإشارة هروب أو استبقاء، لكنهما ظلتا على حيادهما، إمعانا في حيرتي وارتباكي!

كانتا بوسعاديتين أصيلتين، يحفّهما سواد محبب، ويسبح البؤبؤ في بركة بيضاء واسعة.. شبيهتان بعينيّ، وعينيْ أبي.. جعلني ذلك أشعر بشيء من الطمأنينة،قرابة الأعين أمر يبعث على السكينة..ابتعلتُ ترددي وقلتُ بثبات:

– جئتُ لأقدم شكوى..

– ضد من؟

– ضد عتيقة؟

– من عتيقة؟

– جارتي بالطابق العلوي...

قاطعني ماطّا شفتيه في ملل، ولوّح بيديه في الهواء في ضجر:

– حاولي أن تحلّي الأمور معها بشكل ودّي يا آنسة، نفضها للسّجاد وقت خروجك من باب العمارة ليس بالأمر المهم الذي يستدعي قدومك إلى هنا..

حافظتُ على الثبات إياه:

– لكن ليس هذا ما جئتُ بشأنه.

أمال رأسه على كتفه، وطالعني بلا فضول:

– ماذا إذن؟

– هذه المرأة كانت سببا في قتل والدي منذ اثنتين وعشرين عاما..

اعتدل في جلسته، وهو يتأمل الجليد الذي علا مسام وجهي، كنتُ واقفة أمامه كتمثال، باردة كجثة، منتصبة كنقطة في آخر جملة خبرية..

– هل لديك دليل على ما تقولينه؟

– تسجيل صوتي تعترف فيه بالأمر، هل هو كاف؟

– لنر..

...

أزيز بابٍ يُفتَح، مرّت دقائق ثم جاء صوت عطوف:

– ألن تجلسي؟

جابهـا صـوتي حـادّا قريبـا مـن فوهـة المسـجّل الـذي كان مدسوسـا تحـت حجـابي:

- هاتِ ما لديكِ!

حسام

رسائل لن تصل:

«الرسالة الخامسة والسبعون»

إلى السيد باء، ثاني رجل في الأبجدية، وفي الحب..

إليك حسام، أبا للغتي، وابنا وحيدا لقلبي

...

استعدت ملامح محبوبتي الأولى صبرينة التي تركتها تتسرب من بين يدي في لحظة طيش، والتي لم أرها منذ أكثر من عام، لم يتبادر إلى ذهني لوهلة أنها تحتفظ بي رغم مرور سنوات على انفصالنا، خاصة وأنني في كل مرّة أراجعها فيها توليني بظهرها حتى خلتُ أنّها حقا نستني أو استبدلتني.. من أي طينة هي هذه المرأة؟كيف لها أن تكتب لي، وتكتبني هكذا ثم ترتدي أمامي قناع اللامبالاة؟

وكأنني لم أعرف هذه المرأة لمدّة ثلاث سنوات، وكأنّها تتكشف لي في كل مرة عن أنثى جديدة، تنسكِب داخل القالب الأكثر صلابة وعنفوانا،إنّها تتحور تدريجيا إلى جبل.. لا يمكن رؤية ما خلفه..والأصعب إيجاد مأوى مستوٍ داخل حناياه..

أنا الذي خبرتُ نُسخَتَها البِكر، أنا الذي كانت تبكي أمامي، وتضحكُ بسببي.. هل لي أن أعثر بين صخورها على موطئ حبّ ومغفرة؟

التفتتُّ إلى لالة جوهر التي كنتُ قد نسيتُ أن أشكُرها على أنّها سمحت لي أن أقتحم مملكة صبرينة الخاصة، ومكّنتني من الاطلاع على مذكّراتها.. فألفيتها تمسك بيدٍ مرتعشة ورقة، وقد اربدّ وجهها وشحبت ملامحها، وابيضّت شفتاها..

- ماذا هناك؟ قلتُ بهلع!

لم تقل شيئا، وظلّت على حالها وكأنّها في انفصال تام عن العالم..

انتزعتُ الورقة من بين يديها، فألفيتها شهادة طبية تخص صبرينة، كانت أول جملة وقعت عليها عيناي:

bosse à l'aisselle !

اتسعت عيناي في فزع:

-أين وجدتِها؟ أشارت إلى أحدِ أدراجِ ياسمينة دون أن تنبس بحرف!

شعرتُ بالأرض تميد من تحتي، لكن الوقت لم يكن مناسبا للانهيار.. إذ إنّني أسرعت لتلقّف لالة جوهر التي انهارت على الأرض وراحت يدها اليسرى ترتجف بشكلٍ لا إرادي!

النّاشر

يكتظّ بريدي الالكتروني بالمحاولات الأولى لكتّاب عديدين، أحوّلها تباعًا لصديقي الحميم، وشريكي في الدار جلال، هو الأكثر صبرا وتقبلا لهذا النوع من المخطوطات.. إذ إنّه يملك القدرة على التسامح مع الأخطاء اللغوية، كما يُحسِن توجيه من يطلق عليهم «أصحاب المواهب المتكلّسة».. يعتقد أن أعمالهم كانت ستصبح روائع أدبية لولا التّسرع وقلة الخبرة..هو يعتقد أنه كان أحدهم يوما ما رغم أنني لا أشاطره أبدا الفكرة..

جلال الكاتب الذي نبت من باطن الفقر والمعاناة، موهوب بالفطرة.. على خلافي أنا وليد المكاتب الأنيقة، تغذيتُ على الكتابة والقراءة جنبا إلى جنب مع (الكرواصون) الصباحي السّاخن..

قاطعت مهمتي الروتينة رسالة غريبة، تقول فيها صاحبتها:

سعادة النّاشر:

«أرجو أن تقبل بتسامح مخطوطي الأول، الذي لا أعلم إن

كان سيخدمك نشره كما خدمتني كتابته، إذ أنني لم أخطّه بقدر ما تخفّفتُ من خلاله،داخله ستجِدُ تسعة عشر فصلا قئتُ فيها الكثير مني، ولم أك أعتقد أنّني سأفرغ من العمل حقّا لولا أن باغتني حدثان مهمّان:

اكتشاف قاتل أبي بعد اثنتين وعشرين سنة من وفاته، واحتمال إصابتي بسرطان الثّدي..

أرسلتُ لك هذا المخطوط فجر عيد ميلادي، وأتمنى أن تهديني الحياة في ثلاثينيتي الحقيقة في مخفر الشرطة، وفرصة للنجاة في مركز التحاليل..

أنا على ثقة أنك ستُحبُّ العمل، رغم أنني لست راضية عنه تماما..

سأشرعُ في الجزء الثاني له مساء اليوم، لكن رجاء لا تستعجلني في إنهائه.. سأكتُب متى أشاء، وأُمسِكُ متى أشاء، قد يستغرق الأمر شهرا.. أو عِقدًا.. لا أدري حقا!

لقد أرسلت لك النسخة الوحيدة لديّ، وحذفتها.. كما سأحذِف هذه الرّسالة فور إرسالها، فإن كانت لديك نية على مفاوضتي على سعر نشرها، فلتحذف العمل فورا.. فأنا لن أدفع فِلسًا واحدا.. دُمتَ بخير..»

شعرتُ بتنميل في كامل جسدي وأنا أعيد قراءة الرسالة للمرة الخامسة، لا أدري لِمَ لم أشعر للحظة بأن الفتاة كاذبة، على الرغم من أنه مرّ عليّ في مشواري المهني مرّات عديدة حاول فيها بعض الكُتّاب استفزازي برسائل استعطاف،

كأن يدّعـوا أحيانـا إصابتهـم بمـرض خطـير.. أو المراهنـة عـلى أنّ أعمالهـم غـير مسـبوقة كـما فعلـت هـذه الكاتبـة التـي أرسـلت المخطـوط باسـم مسـتعار: مريمـة..

فتحت ملف المخطوط:

افتتحته بعنوان: ذيل قصّة

فكرت: ما نوع الحكاية التي تستهلّ من ذيلها؟

أجابتني:

حكاية مؤخرة العمارة ذات الوجه الواحد،

كامرأة طمسوا ثديها الأيمن..

يحيط بها سور شائك،

وتجلس فوق رأسها خمسة طوابق غاضبة!

الحافّة

يؤنستي قول مولر: «ليس هناك وضع ثابت في الطبيعة، كل شيء في حالة تكيّف، وإعادة تكيّف، وإلا سقط في النهاية»..

أقلّب العبارة على شتى أوجهها، أحاول ابتلاعها كاملة، ومجزّئة لأخفّف عني شعور الذنب الذي يقرص قلبي حول كوني قد استحلت لشخص آخر لا أكاد أعرفه، وكأنني أحاول الانتقام بأثر رجعي.. لا على قتل والدي، وخديعة من عددتها خليلتي، بل على صبرينة التي كانت لتكون شخصا آخر وطئوه بأقدامهم، واستبدلوني به.. أنا النّسخة المشوهة عن المرأة الجبل!

هل ما فعلته هو أداة (تكيّف) حقّا؟ أم أنه عين السّقوط في النّهاية!

أو ربما هي بداية النّهاية!

اصطدمت بمنكب رجل عريض فتناثرت أفكاري على الأرض..

وقبل أن أستجمع الشّتيمة القابعة تحت لساني، وأبصقها في منتصف وجهه كان قد ابتعد عني بقدر لا بأس به، دون

أن ينتبه حتى إلى كونه كاد يدهس إنسانا في طريقه، كان يجر امرأة متهالكة من ذراعيها وهو يهادن صدمتها بكلمات وصلني بعض منها..

يبدو أنها قد اكتشفت توا أن لصّا قد تسلّل إلى خلاياها، وطفق يستثمر بأنانية فجة في ميكانيك الحياة داخلها، لصالحه..

يحاول المختصون تبسيط مفهوم مرض السرطان فيقولون: هو خلايا مجنونة! بينما يخفون الوجه الآخر لهذا المفهوم: أن الخلايا التي تجنّ تشغّل عدادا عكسيا نحو اللحظة الصفر!

فقط من يصابون بهذا المرض، ومن يتّصلون بهم من أحبة يدركون بحدسهم هذه الحقيقة!

المرأة المصابة، ورفيقها الذي يحاول لملمة شظايا المفاجأة تلمّسا بعجز: بداية النّهاية!

نظرتُ بإمعان إلى الحافّة الذهبية التي تؤطّر اللافتة العريضة لمركز التحاليل، كانت الشمس تنعكس عليها بحدّة.. أمعنت النظر، أفكر في شيء ما لم أستطع القبض عليه تماما.. في أشياء عديدة، في كل شيء مرّة واحدة.. ثم.. في اللاشيء

فضّلت عدم محاولة الفهم كأحسن حل، هششت عن ذهني فكرة أنني إن خرجتُ أحمل تحت إبطي ذات اكتشاف المرأة التي مرّت من خلالي منذ قليل فإنني لن أجد من يسندني حتى محطّة الحافلات.. وأن أمرا كهذا لو حدث

ربما سيكون عقابا إلهيا لي على أنني قدمت إفادتي ضد عتيقة هذا الصّباح،

مسحت يداي غير الملطّختين بشيء بمنديل ورقي، ودخلت المركز بغير حول!

تمّت

مريم يوسفي

أبي الجبل

«أبي الجبل» نص يشتغل على الهشاشة الإنسانية في شقها الأنثوي، تروي البطلة علاقتها بوالدها بلغة شاعرية دافئة، وبناء حداثي. نجحت مريم في اعتماد هذه التوليفة بين طبيعة اللغة الذاتية، وبين طبيعة البناء، رواية تمكنت فيها مريم من توريط القارئ في الحكاية. وورطتني مع شخصياتها، وعشت لحظات الفرح، والخيبة والدهشة.

عبد الوهاب عيساوي/ روائي جزائري

في هذه الرواية مجموعة من النساء اجتمعن في صوت امرأة واحدة هي صبرينة، التي تجيد إغواء القارئ بفتنة حكيها المحبوك بلغة مكثفة تضاهي براعة تكثيف القصيدة، ذلك الحكي مستلهم من واقع القلق الذي تعيشه وتحاول التعايش معه؛ قلقها من المكان ومن الأشخاص القريبين منها ومن وجع الفقدان.. وقلقها من نفسها وذاكرتها ومشاعرها.. وحتى من صبرها.

محمد الأمين بن الربيع/ روائي جزائري

لغة ناضجة، أسلوب متميز، وتَمكن جميل من الأدوات السردية. بداية قوية ونهاية ذكية لرواية واعدة تنبئ عن مستقبل مشرق مزهر لكاتبتها.

محمّد سعيد أحجيوج/ روائي مغربي

تتعالى رواية «أبي الجبل» عن كلّ التّصنيفات من قبيل كونها شبابيّة ونسائيّة وجزائريّة وتكتفي بالتّخندق في تصنيف واحد هو كونها رواية الحياة.

عبد الرّزاق بوكبّة/ كاتب واعلامي جزائري

ISBN:978-9931-801-17-7
9 789931 801177
ضمّة للنشر والتوزيع
Dammah Publishing & Distribution